صديق شيبوب

جوته

اقرأ ٣٥

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



جـــوته

تمهيد

فى ربيع سنة ١٩٣٢ احتفل العالم بمرور قرن كامل على وفاة الشاعر الألمانى الكبير «جوته» فأقيمت فى حواضر الدول الأوربية وغير الأوربية حفلات متفرقة تحية لذكراه . وقد اشترك العالم كله بإحياء هذه الذكرى ، لأن «جوته» إذ كان أديبا ألمانياً ، لأنه ولد وعاش بألمانيا ونظم بلغتها شعره الرائع وكتب بها مؤلفاته العظيمة ، فقد كان عالميا بذهنه وفنه وفكره وما عالجه فيها من الشئون التى تشمل الحياة فى صميمها على اختلاف الأوضاع والبيئات .

لذلك كان من حقه على العالم أن يفخر بعقله الخصب وإحساسه المتقد وخياله النادر ، وأن يستوحى من حياته الطويلة التى كادت تمتد إلى قرن كامل كل العظات الجسام التى حفلت بها ، وأن يستخلص من حوادثها دروساً جليلة فى الفن والأدب . وقد وسعت هذه الحياة شتى المذاهب ومختلف الأفكار ،

وعصفت به شتى الأرواح ، وتناوبتها ضروب الاحساسات والمشاعر ، حتى كادت تذهب بوحدتها . بيد أن « جوته » عرف كيف يستفيد من هذا جميعه خدمة لفنه وأدبه ، وكيف يغذى شعره وقصصه بالحوادث التى مرت به ، كما عرف أن يسمو فوق هذه الحوادث محلقاً فى جو الإنسانية ، حتى صارت قصائده وكتاباته معبرة عن شعور الإنسانية كلها . وقد طاف هذا الفنان الكبير بشتى المذاهب الفنية ، واختار أحلاها قيمة وأشملها إنسانية وأوقعها فى النفوس وأقربها إلى الكمال ، وهو الفن اليونانى .

ولم تقتصر عبقريته على الفن والأدب فشملت العلوم الوضعية ، وقد درس بعض فروعها دراسة عميقة ، وانتهى من بحثها إلى نتائج جيدة ، إذ استطاع أن يدلل على مبدإ الوحدة التى تؤلف بين الكائنات ، وبرهن على وجود عظم بين الفكين فى الوجه ، فتقدم بذلك العلماء الذين عنوا بهذه الدراسات فى القرن الماضى .

ووصف نابليون جوته بأنه رجل ، أجل فقد كان الرجل كما ينبغى ، مستطيعاً أن يستفيد بجميع مواهبه ، وأن يحتفظ فى كل مرحلة من حياته بعقله وجسمه سليمين قويين . وكان يسعى فى عمله وأدبه إلى الكمال ، ويطلق العنان لتفكيره فيذهب

فى مختلف الشعاب و يبلغ به أقصى الأغراض .

وكان لمصر نصيب فى إحياء ذكرى «جوته» فأقيمت فى القاهرة حفلات عديدة ، وكتبت الصحف المقالات الطويلة منوهة بعظمته الخالدة .

ووضع الأستاذ عباس محمود العقاد كتاباً عنه وترجم قطعاً متناثرة من روائعه .

ولقد كان من حظ لغتنا العربية قبل ذلك أن نقلت اليها أهم مؤلفات جوته هى «آلام ورثر» و «فاوست» .

أما قصة «آلام ورثر» فقد ترجمها الأستاذ جورج مطران منذ أربعين سنة ونشرها فى «المجلة المصرية» التى كان يصدرها أخوه الأستاذ خليل مطران بك . ثم ترجمها بعد ذلك الأستاذ أحمد حسن الزيات . وكلا هذين الأديبين ترجم القصة عن النص الفرنسى .

وأما قصة «فاوست» فقد ترجم الجزء الأول منها عن الأصل الألمانى إلى العربية الأستاذ محمد عوض ووضع الدكتور طه حسين بك لكل من ترجمتى آلام ورثر وفاوست مقدمة شائقة .

وترجم بعد ذلك الأستاذ محمد عوض كتاب «هرمن

ودوروتيه » ، كما نقل إلى العربية منذ عامين الأستاذ عبد الرحمن بدوى قصة « ولهلم ميستر » .

وبعد : فإن أوائل العهد بهذا الكتاب يرجع الى تلك الاحتفالات فقد جمعت أيامئذ مراجعه ، وأطلت النظر فيها وتدبرت أمره ، ولكن ظروف الحياة لم تتح لى كتابته فى شكله الحاضر إلا فى هذه الأيام الأخيرة .

ولقد حرصت على أن يضم تفصيلات وافية عن ترجمة « جوته » وخاصة ما كان منها ذا أثر فى مؤلفاته وأدبه . وقد استمد حوادث تلك مؤلفات من حياته الخاصة ، ولكنه استطاع أن ينتزع منها صور الإنسانية الشاملة ، وصار بذلك بين عظماء الإنسانية الخالدين على وجه الدهر .

بين الطفولة والصبا

ولد « ولفانج جوته » فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة « فرانكفورت » من أسرة تنتمى فى أصلها إلى الطبقة الشعبية، ولكن جده لأبيه جمع ثروة كبيرة وعلم ابنه « يوهان » الحقوق فلما نال الشهادة ابتاع بماله رتبة مستشار ملكى. وكان « يوهان » هذا قوى الشكيمة مدرب الإرادة صلب الرأى يتحكم فى عواطفه ويحرص على التقاليد الموروثة فى الآداب والأخلاق.

وقد تزوج بابنة عمدة مدينة فرانكفورت، وكانت وافرة الذكاء، متوقدة الشعور، واسعة الخيال، كريمة الخلال. فورث « ولفانج » عن أبيه الحزم والخضوع للنظام واحترام التقاليد والشرائع الموضوعة وتحكيم العقل والإرادة فى ظروف الحياة وملابساتها. وورث عن أمه مرح الطبع وقوة الخيال واتقاده، ولباقة الحديث وحسن سبك القصص وروايتها.

كان « ولفانج جوته » بكر والديه، وقد رزقا من بعده خمسة أولاد، مات أربعة منهم، ولم يعمر غير الفتاة « كورنيليا » التى

أحبها أخوها حباً جماً ، حتى صار فيما بعد يستودعها أسراره ، ويدلى إليها بآماله وأحلامه . وقد تزوجت بصديق أخيها « شلوستر » وماتت سنة ١٧٧٧ .

وقد عنى والد « جوته » بتربيته أولاده على طريقته المنيفة . من ذلك أنه كان يعودهم منذ حداثة سنهم على النوم منفردين كل واحد فى مخدعه ، غير حافل بما يعتريهم من خوف فى رهبة الظلمة الحالكة فإذا أحس أحدهم بالخوف و بكى لم يجد ملبياً لعويله . و إذا حدثته نفسه بالهرب من غرفته الى حيث يجد الطمأنينة والأمن بالقرب من أمه أو مربيته رأى والده واقفاً له بالمرصاد ، يأمره بالعودة من حيث أتى .

وقد خفف وطأة هذه التربية القاسية على (وامانج) الصغير حنان أمه وعطف جدته لأبيه ، وما كانت تجزله له من الهدايا . ولعل أبعدها أثراً فى نفسه لعبة تتألف من شخوص صغيرة بعثت فى ذهنه فكرة المسرح والتمثيل .

وتوفيت هذه الجدة فى سنة ١٧٥٥ وأراد والده إصلاح المنزل الذى يسكنه ، فانتقل الفتى وأمه إلى منزل جده لأمه . وهكذا تخلص بعض الشىء من رقابة والده . فسلاماً على ساعات الدرس

الطويلة ، وبعدًا عن الكتب والاعتكاف فى المنزل كأنه سجن رحب ، وما أحلى المرح فى شوارع المدينة وأسواقها فى زمرة من الأخدان ، يطوفون بالأوساط الحافلة بالناس ، أو يتسلقون أسوار المدينة ويشرفون على الفضاء الواسع والحدائق الغناء .

على أن هذه الحياة المرحة لم يطل أمدها، لأن المنزل لم يلبث أن تم إصلاحه، فعادت الأسرة اليه ، وعاد «ولفانج» إلى حياة كلها جد وصرامة . وكان والده يراقب بنفسه تعليم ابنه ويشهده فى ساعات الدرس والتحصيل. وقد تعلم الفتى على حداثة سنه اللاتينية واليونانية والعبرانية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية فضلا عن أصول لغته ، ودرس التاريخ والجغرافيا وعلم النبات والحساب وأصول الدين والرسم والموسيقى . وكان يشعر بعقله يتفتح وذهنه يتقد ، بين هذه المعارف الشتيتة ، فصار يقبل عليها فى شغف ورغبة .

ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى صار ينظم الشعر ، وحتى وضع قصة ينتمى أشخاصها إلى أمم مختلفة يتكلم كل واحد منهم بلغة بلده . وعشق وقتئذ فتاة أطلق عليها اسم « مرجريت» فى كتاب ذكرياته « شعر وحقيقة » فحملته الفتاة على معاشرة

جماعة من الشبان الأفاقين الذين كانوا يبيعون شعره و ينفقون ثمنه فى شرب الخمر ، وكانت « مرجريت » خير هؤلاء الرفاق ، جميلة الوجه ، رقيقة الشعور ، تنم عيناها عن طيبة قلب ونقاوة وجدان ، ولعلها هى التى وصفها فى قصة « فاوست » ، و يروى أنه شهد معها حفلة وطنية بمدينة فرانكفورت . ولما افترقا ضمته إليها فى قبلة طويلة كانت الأولى والأخيرة ، لأنه اكتشف فى صباح اليوم التالى أن أولئك الشبان كانوا عصابة من المجرمين الفاسدى الأخلاق .

وعرف والده بأخبار ابنه ، فأرسله الى « ليبزيج » فى شهر سبتمبر سنة ١٧٦٥ ليتم دروسه فى جامعتها ، فما لبث أن عافت نفسه الدرس والتحصيل فى محيط علمى خاص ، فصار يغشى المجتمعات العامة والأندية ، وصار يزور من يستزيره ولما رأى حفاوة الأوانس به وطوافهن حوله أخذته موجة من التهكم المرير أبعدتهن عنه ، وأغلقت فى وجهه أبواب المجتمعات وتحامته الأسر . فأكب على نظم الشعر ، ووضع مسرحيتين حذا فيهما حذو القصص الفرنسية .

كان « جوته » قد بلغ سن الشباب ، وكان مستطيل الوجه ،

متناسق الملامح بالرغم من طول أنفه ، وضاء الجبهة ، كستنائى الشعر ، ذا عينين سوداوين تشعان ذكاء ، وكان ذا جرأة فى محادثة النساء ومطارحهن أحاديث الهوى .

وقد اتصل بمدينة (ليبزيج) بفتاتين ، كانت إحداهن « كاترينيت » أو « آنيت » كما كان يسميها ، وهى التى أوحت إليه رواية عنوانها « بدوات العاشق » ، « وكانت الثانية » « فريد ريكيه اوزر » ابنة رسام ماهر صحبه « جوته » حيناً واستفاد منه فهم معانى الجمال الكامنة فى الفن اليونانى ، من بساطة فى الشكل وشبه للطبيعة .

أما الأولى فقد بادلت « جوته » حباً بحب ، ولكن الثانية أصغت إليه فى ملل ظاهر ، ولم تشجعه على الاسترسال فى هواها

وفجأة أصيب جوته فى شهر يوليو سنة ١٧٦٨ بنزيف حاد كاد يقضى عليه . فعاد إلى مسقط رأسه حيث ظل يعالج نفسه عاماً كاملا حتى شفى من دائه . ثم سافر بعد ذلك إلى مدينة « ستراسبورج » فى آخر مارس سنة ١٧٧٠ ليتم دروسه فى جامعتها الشهيرة .

كانت هذه المدينة فى ذلك العهد ملتقى شتى الطرق

الأوربية ومختلف المدنيات ، وكانت خاصة مسرح صراع عنيف بين مدنيتين : الجرمانية واللاتينية . وكان يقصدها عدد غير قليل من كبار الكتاب المفكرين ، وقد تعرف « جوته » إلى أحد هؤلاء المفكرين الذى كان له أبعد الأثر فى حياته ، وهو « هردر »

كان « هردر » كاتباً أديباً وافر الاطلاع على الأدب الانكليزى ، وكانت له نظريات سديدة فى تاريخ الإنسانية من ناحيتى الفلسفة والفكرة فاستفاد «جوته» من صحبته . وهو الذى أوحى إليه أن يدرس أدب « أوسيان » و « شكسبير » وحمله على مطالعة التوراة وهوميروس ، فلم يكد « جوته » يسمع نصائحه ويعمل بها حتى شعر فى قرارة نفسه بثورة جياشة على الأدب القديم وسننه الموروثة ، إلا أنه تهيب أن يستسلم إليها .

على أن إقباله على الدرس والمطالعة لم يكن ليحول بينه وبين حياة المرح والطرب ، فقد اكتمل شبابه وصار يغشى أماكن اللهو ودور الرقص . وقد تعلم الرقص على أستاذ فرنسى كانت له فتاتان أحبتا تلميذ والدهما وأبصرته مرة كبراهما يقبل صغرى فبعثتها الغيرة فضمته إليها فى شدة وقالت له والدمع

يترقرق فى عينيها : « أعرف أنى فقدتك إلى الأبد » ، ثم قالت لأختها : « ولكنه لن يكون لك » ثم قبلته فماً لفم وقالت : « وأما الآن فاحذر لعنتى ، ويل للتى سوف تقبل هاتين الشفتين من بعدى » ، فكان ذلك سبباً لقطع صلاته بأستاذه وابنتيه .

ويظهر أن هذا الحادث نبه فى نفس « جوته » أن من الواجب عليه أن يكون قوى الإرادة ليتغلب على جماح العواطف . وقد تبع فى ذلك طريقة طريفة : كان يمقت الصخب والضجيج ، فصار يسير مع الجنود فى حفلاتهم العسكرية ، ويمشى قريباً من جوقة الموسيقى الحافلة بالطبول والزمور ، وكان يصاب بالدوار إذا نظر من عل ، فصار يصعد إلى أعلى قمة فى كاتدرائية ستراسبورج ويعود نفسه على النظر من حالق . وكان يشعر أحياناً بخوف وذعر ، فطفق يزور الكنائس والمقابر ليلاً . وكانت أعصابه ضعيفة واهنة ، فشرع يذهب إلى المستشفيات ويشهد العمليات الجراحية .

ثم شاء أن يزور مناطق المعادن ومقاطعة السار ، فطاف بها وكان أن حل ضيفاً فى قرية « سيزنهيم » على قسها فأحب وسطى بناته واسمها « فريد ريكه » فكان حبه سبباً فى كثرة

تردده على القرية حتى أحبته الفتاة ، وكان يخشى عليها لعنة ابنة أستاذ الرقص إذا باح لها بهواه ، ولكن للعواطف قوة لا تحول دون ظهورها امنيات السماء والأرض . فاندفع فى تيارها حتى أصبح وإياها حبيبين يمرحان فى سعادة وهناء .

وكأن الحب الذى يفعم قلبه يفيض شعراً على لسانه . وكانت الطبيعة التى كشف له « هاردر » عن مفاتنها تمتزج بإلهامه فتزيد فى إرهاف إحساسه وصدق تعبيره ومن أجمل قصائده التى نظمت فى ذلك العهد « أنشودة مايو » .

ولكنه شعر بعد لأى أن حالته مع الفتاة قد أصبحت مريبة، وأن أهلها ينزلونه منها منزلة الخطيب ، وكان الشتاء قد أخذ يتوارى أمام الربيع الذى يعطر بشذاه الرياض والجداول ، وكانت الفتاة قد انتابها مرض ألزمها الفراش شهوراً ، فظل ردحاً من الزمن يتنازعه التردد بين السفر والإقامة . لله تلك المحنة ما أشدها وطأتها ! وأخيراً استقر رأيه على الرحيل إلى ستراسبورج فى غير عودة ، فودع الحب وأيامه ، وسافر من غير أن يصارح أحداً بما اعتزمه . وهكذا فعل « فاوست » فى قصته

وهى قصة العبقرية . فقد غادر الفتاة فى كنيسة شديدة الشبه بكاتدرائية ستراسبورج . وكانت هذه الفتاة مثل «فريد يريكه» ذات عينين زرقاوين وضفائر شعر، ولكن اسمها كان « مرجريت » .

وفى ستراسبورج قدم « جوته » أطروحته لكلية الحقوق فى ٦ أغسطس سنة ١٧٧١ ليظفر بدرجة دكتوراه فرفضت ولم يفز بغير شهادة الليسانس ، ولكن العالم لم يأبه للفرق بين الشهادتين ومنحه لقب دكتور .

وهكذا قفل جوته عائداً إلى فرانكفورت ولكن «فريديريكه» كادت تموت . . .

ولم يلبث جوته بعد عودته إلى مسقط رأسه أن قيد اسمه فى سلك المحامين يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٧٧١ وزاول مهنته الجديدة فترافع أمام المحاكم فى أسلوب فخم واندفاع جرىء .

ولكن الأدب ظل يستهويه . فما لبث أن انقطع عن المحاماة وعاد إلى مطالعة قصص شكسبير، وشرع فى تأليف أولى مسرحياته

الدرامية ، وعنوانها « الفارس ذو اليد الحديدية » ونشرها سنة ١٧٧٣ ناسجاً فيها على غرار قصص الشاعر الإنكليزى الكبير . وشاء أن يمثل فيها بعض أصدقائه ، وأن يصور بعض مواقفه منهم ، ولكن القصة كانت ضعيفة فى مجموعها ، سواء من ناحية التأليف أو التمثيل ، بالرغم من عنف بعض مشاهدها .

٢

آلام ورثر

كان «يوهان جوته» يطمع فى أن يرى ابنه «ولفانج» مستشاراً مثله ، وتتوق نفسه إلى أن يجده فى عداد كبار رجال القانون . لذلك لم يرض عن اشتغاله بالأدب ، وفكر فى وسيلة تمكنه من تنفيره منه وترغيبه فيما قدره له . فقاده تفكيره إلى إرساله مدينة « درامستاد » ليتمرن على الأعمال القضائية فى محكمة «وتزلار» العليا ، ولم تكن ثم محكمة كهذه المحكمة تستطيع أن تباعد بين الشاعر وبين المحاماة ، فقد تفشت الرشوة بين أعضائها ، وتراكمت القضايا ، حتى اضطرت كل المقاطعة أن تنفذ إليها مندوبين يستعجلون النظر فى قضايا رجال مقاطعاتهم .

وصل ولفانج جوته إلى « درامستاد » فى منتصف شهر مايو سنة١٧٧٢على أن يعيش فى رعاية إحدى قريباته وتحت إشرافها . وحدث أن رافقها فى ٩ يونيو من تلك السنة إلى مرقص أقيم فى غابة بالقرب من المدينة ، وقد دعت تلك السيدة آنسة تدعى « شارلوت بوف» ابنة رئيس الشرطة لتشهد معهما تلك الحفلة ،

فعجب « جوته » الشاب بعينيها الزرقاوين ووجهها البسام ومظاهر النشط البادية على جسمها وفى حركاتها .

وكانت الفتاة كبرى إخوتها وعددهم أحد عشر ولداً ، وقد توفيت والدتها ، فكانت تشرف على العناية بهم وعلى إدارة منزل والدها ، وقد جعلتها هذه المسؤوليات الصعبة ذات حزم وجد ، تتحكم فى إرادتها وعواطفها ، كما تتولى تربية إخوتها ، وقد استنفدت مهام المنزل كل وقتها حتى لا تجد من الفراغ ما يمكنها من المطالعة ، وكانت إلى هذا وذاك مخطوبة إلى سكرتير مندوب مقاطعة « بريم » لدى المحكمة العليا واسمه « كستنر » ، وكان مثلها يعمل فى جد وإخلاص .

وزارها «جوته» فى غد اليوم الذى تعرف بها فيه ، واستطاع أن يكتسب ود أبيها وإخوتها ، بما طبع عليه من حيوية وثابة وظرف معاشرة ، وبما أوتيه من لباقة فى تصريف الحديث ومهارة فى اكتساب القلوب . ولم يلبث أن صار من أصدقاء المنزل ، يقص على صغار إخوتها الحكايات الطريفة ، ويساعد الناشئين منهم على فهم دروسهم ، أو يضرب لهم على البيانو أنغاماً مختلفة . وكان يتودد إلى شارلوت بشتى الأساليب .

وكان « كستنر » يخشى هذا المزاحم الخطر ، وأنَّى له أن يجار به في سرعة خاطره وظرف حديثه ، وهو الذي يقضي يومه عاملاً كادّاً ، فإذا جاء الليل لبث منهوك القوى خائر العزيمة . ولما صار يشعر بأنه يشتي في حبه شكا إلى خطيبته ما يخامر قلبه من خوف ، فطمأنته على حبها له ، وأزالت ما كان عالقاً في نفسه من ريبة ووجل.

وشاعت بالمدينة أخبار زيارات « جوته » لشارلوت وانقطاعه عن قريبته زوج المستشار . ولقيه مرة صديقه « ميروك » وكان صحفياً أديباً ذا طرق شيطانية حتى كان « جوته » يلقبه بمفيستو، إنه لقيه في تلك المدينة وعرف أخباره مع شارلوت كما عرف شارلوت نفسها ، فنصح له بأن ينقطع عنها بعد ما جمع في دخيلة نفسه كنوزاً ثمينة من شتى العواطف والأحاسيس ازداد بها خياله اتساعاً واكتسب بها قلبه ثروة ، وأوحى إليه أن يدون هذا جميعه ، لأن الدواء الشافي من الحب لصاحب العبقرية الكبيرة هو أن يدون العواطف المضطرمة في قلبه ويصوغها في قالب فني بارع .

فقرر جوته السفر يوم ٢٨ أغسطس، وهو يوم ذكرى ميلاده وميلاد « كستنر » ، ثم أرجأه أسبوعين . وأخيراً وطد عزمه

عليه وتشدد ، وودع صاحبيه ، شارلوت وخطيبها ، مساء فى الحديقة، وكان وداعاً مؤثراً تحدثت فيه شارلوت عن أثر ضوء القمر فى نفسها ، وارتمى جوته عند قدمها جاثياً يقبل يديها و يذرف الدمع السخين . وعند ما غادر المنزل قال للخطيبين : « سوف نلتقى ، إنى مغادركم طوع إرادتى فلا أقول إن فراقنا لا لقاء بعده ، الوداع يا شارلوت ، الوداع يا ألبير سوف نلتقى » ، فردت عليه شارلوت مبتسمة « غداً على ما أظن » ثم درجت إلى منزلها فى ثوبها الأبيض ، فمد جوته نحوها ذراعيه كأنه يحاول أن يمسك خيالا .

وغادر جوته مدينة وتزلر فى الغد، كما قال، سعيداً بأنه استطاع أن يضحى بنفسه وحبه فى سبيل صديقه « كستنر » راضياً بانتصاره على كبريائه وغريزته . فإذا وصل إلى مدينة « كوبلنس » أقام فيها يوماً ضيفاً على «صوفي دى لاروش»، وكانت أديبة وجدانية على جانب من الأناقة والظرف والجمال بالرغم من تقادم سنها .

لم يكد « جوته » يحل فى ضيافتها حتى أحب «مكسيمليان» كبرى بناتها ، وقد أحبها بينما هو لم يبرأ بعد من حب شارلوت، وقد دل فى هذا الصدد فى مذكراته : « إنها عاطفة لذيذة أن

نشعر فى قلوبنا بحب جديد قبل أن نشفى من الحب القديم » .

وتابع جوته سفره إلى فرانكفورت فوصلها فى شهر أكتوبر، وفى شهر نوفمبر جاءه خطاب من « كستنر » يقول له فيه : إن « جيروزاليم » ، وكان شاباً وسيم الطلعة ، إنه انتحر بطلق نارى ، لأنه أحب إلى حد اليأس سيدة جميلة . فأهمه هذا النبأ لأنه جاء بالخاتمة التى كان يبحث عنها للقصة التى شاء أن يخلد بها حبه لشارلوت . فسافر لساعته إلى « وتزلر » وشاهد الغرفة التى انتحر فيها العاشق اليائس ، واستفسر عن حكاية الانتحار كلها . ورأى شارلوت وخطيبها سعيدين بحبهما . فقفل راجعاً إلى فرانكفورت وقد تفتحت جروح قلبه التى لم تندمل بعد ، واضطرمت فى كبده نار الغيرة ، حتى صار مسهد الجفن حائر اللب ، يداعب فى لياليه الطويلة خنجراً يود أن يطعنه فى أحشائه فيجبن دون ذلك. و بلغه فى ربيع سنة ١٧٧٣ نبأ زواج شارلوت وسفرها إلى مقاطعة هانوفر .

ولكن هذا الغرام القديم على قوته لم يحل دون اتصاله بمكسيمليان ومطارحتها الغرام فى رسائله إليها .

وكان أن تزوجت « مكسيميليان » فى شهر أكتوبر من

بقال غنى يدعى « بيير أنطوان برنتانو » من سكان مدينة فرانكفورت فانتقلت إليها ، وهكذا قاربت التقادير بينها و بين جوته. وقد رحب زوجها به عندما زارهما ، لأنه رأى في هذه الزيارة مفخرة له . وكان « جوته » قد اشتهر بين مواطنيه وصار موضع تقديرهم وحفاوتهم، على أنه بعد أن تعددت الزيارات لاحظ الزوج سوء أثرها فى زوجته ، وشعر أنها ابتدأت تتغير عليه ، وأنها صارت تصغى لأحاديثه شاردة اللب ، فى حين أنها تستقبل جوته فى اهتمام بارز، ينم عليه انبساط أسارير وجهها ولمعان عينيها . فاضطر الزوج أن يظهر الجفاء لجوته، وأن يصارح زوجته بما يجول فى نفسه ، فسألت صاحبها أن يباعد بين زياراته التى كانت يوماً فيوماً .

لقد تمت إذن فى قلب الكاتب الكبير قصة آلام ورتر ، ولم يبق عليه غير صياغتها ، فعكف على كتابتها حتى أتمها فى أربعة أسابيع ، حتى إذا أتمها شعر بأنه شفى من لواعج الغرام وآلام الغيرة . أو كما قال فى مذكراته : « كان إحساسى بعد ذلك كإحساس من يغادر الكاهن بعد أن اعترف بخطاياه ، فقد رأيتنى خفيف العبء مطمئناً إلى نفسى ، شاعراً بأنى أستطيع أن أعاود حياتى من جديد » .

مزج جوته فى قصته بين شخصيتى «شارلوت» و«مكسيمليان» من ناحية ، و بين شخصيتى « كستنر » و « برنتانو » من جهة أخرى، فاستعار لشارلوت عينى مكسيمليان السوداوين وشيئاً من أخلاقها وثقافتها ، لأنه جعلها تطالع «كلو بستوك» و «روسو » ، واستعار لكستنر غيرة برنتانو وطبيعته الشعبية . أما ورتر نفسه فقد ذكر جوته أنه حاول أن يصف فى شخصه « شاباً ذا فكر ثاقب و إحساس عميق أضاعته أحلامه الوثابة وأنهكه التفكير حتى ابتلى بحب تاعس فانتحر » .

مثل جوته فى « ورتر » شاباً خيالى النزعة ، ثائراً على أحكام القدر ، عطشاً للملذات المرهفة الأنيقة ، فخوراً بإحساسه حتى لا يكبح له جماح ، ضعيفاً عن التغلب على أهوائه . والقصة مكتوبة فى شكل رسائل يبعثها « ورتر » إلى بعض أصدقائه ، بحيث لا تظهر غير شخصيته ، و بحيث نتبين الشخصيات الأخرى من خلال حديثه عنها . وهو يذكر فى مستهلها حبه لفتاة وهجره لها وسفره إلى حيث يجد السلوى والعزاء فى وحدته، و يصف إعجابه بالربيع ، وازدهار الأشجار والغابات ، ويعترف بأنه ذو طبع متقلب يعده للحزن العميق أو الفرح العظيم ، وأنه مضطر

إلى مداورة قلبه كما يلاطف الطفل المريض ، وأنه يشعر فى أوقات غبطته أن فى نفسه قوى مهملة . . . وهى جميعها أخلاق نجدها فى « جوته » الشاب .

بينما كانت تتناوب «ورتر» هذه الأفكار والعواطف عرف فتاة اسمها «لوت» ، وهو تصغير اسم شارلوت ، فأحبها ، وزاد فى حبه أن فى أخلاقها مزايا يشعر بأنها تنقصه ؛ منها تحكيم العقل وهدوء النفس وطمأنينتها . ولكنها مخطوبة إلى شاب يدعى « ألبير » ، وقد رضى هذا الشب بصداقة « ورتر » ، أما هو فلما أبى أن يرضخ لأحكام القدر استولى عليه حزن عميق دفع به إلى نزهة غريبة طويلة ، فهو يلتحق بإحدى السفارات . فلا يطيق العمل فيعود إلى حيث « لوت » ، كما تبعث الطبيعة بالفراشة إلى حيث النور . وينزعج « ألبير » لملازمة « ورتر » لخطيبته . وأما الخطيبة فقد أحبت « ورتر » وألقت بنفسها مرة بين ذراعيه ، ثم انتزعتها منهما وهى تضطرب حباً وغضباً ، ثم أقسمت بأنه لن يراها .

وإذا أشرفنا على نهاية القصة طالعنا صفحات مؤثرة ، لعلها من أبلغ ما كتب « جوته » . وصف فيها كيف استقر رأى «ورتر» على الانتحار فرغب إلى «ألبير» أن يرسل إليه بطبنجته ، بحجة

أنه على سفر وأنه بحاجة إليها ، وقد تناول هذا السلاح من يد « لوت » بعد أن مسحت الغبار العالق به ، أخذه « ورتر » من يد التى يسميها « قديسته » وقبله كأنه يتناول الكأس البادرة التى سيشرب منها نشوة الموت .

وقد تأثر جوته فى كتابة قصته بأدباء عديدين . فوضع القصة فى رسائل مأخوذ عن « ريكاردسون » و « روسو » . وقد نهج فى قوة الأسلوب و بلاغته وما فيه من تبديل وتحوير نهج قصة ألمانية تقدمت قصته بسنين ، عنوانها «ستور أنددرانج» فى زمن العاصفة . بل يقال أن « ورتر » نفسه يشبه فى شخصيته أبطال هذه القصة التى تعد فى الأدب الألمانى فاتحة عهد جديد.

ظهرت قصة « ورتر » سنة ١٧٧٤ فأحدثت دوياً شديداً وثورة عنيفة فى الأدب . وصار « جوته » وهو فى الخامسة والعشرين من عمره أشهر كتاب ألمانيا وقد ترجمت إلى الفرنسية بعد ظهورها بعامين ، و إلى الانجليزية فى سنة ١٧٧٩، ثم لم تلبث أن ترجمت إلى مختلف اللغات الأوربية الأخرى ، وأسرع الناشرون إلى جوته يطلبون منه قصصاً أخرى على طرازها فأجابهم : « اسأل الله أن لا أعود أبداً إلى حالة عقلية أجدنى

مضطراً فيها إلى تأليف كتاب كهذا » .

ولعل من الخير أن نشير إلى نقد مرير وجه إلى قصة « آلام ورتر » يدور حول تحبيذ الانتحار والحض عليه . وقد قالت « مدام دى ستال » : إن ظهور هذه القصة سبب من حوادث الانتحار أكثر مما سببته النساء الجميلات. وهو قول خاطىء، لأن الكثيرين من مؤرخى الأدب أجمعوا على أنه لم تعقب ظهور القصة حوادث انتحار ، وأنه ليس فيها تحبيذ له . فقد وصف « جوته » « ورتر » بأنه شاب لا عمل له غير السير وراء أحلامه، وأن خياله الواسع و إحساسه الفياض كانا يطغيان على عقله وقواه، وأنه كان ذا قلب مريض يعذبه عذاباً يلذه ويرتاح إليه ، وأن روحه كانت تبحث عن الشعور الدقيق، وكان يروق لها أن تسمو إلى أعلى قمم المشاعر لتنظر منها إلى أعماق القلب السحيقة ، فتحس بدوار كالذى يحسه من يرقى إلى علو شاهق و يتطلع إلى المنحدرات العميقة ، فلا غرو إذا لم يجد شاب كهذا راحة فى غير الموت .

وقد شاء جوته أن يضرب به مثلا للموعظة والتذكير يتوجه بهما إلى الذين يرغبون فى اتباع نزوات نفوسهم ، وفاقاً لشهوات قلوبهم ، لا يأبهون لإرشادات العقل ، ولا يعنون بالتوازن بينه

و بين العاطفة ، وأراد أن يدل على إفلاس القلب البشرى إذا سيطر على الحياة وشرع لها سبل المعيشة .

و إنما انطبع أثر ورتر فى نفوس قرائه من ناحية العاطفة وفهم الطبيعة والتمتع بروائعها وبدائعها . وولد فيهم ما أسموه أيامئذ بالورتيرسم ، وقد بلغ هذا الأثر إلى حد أن الشبان أخذوا يقلدون ورتر فى ارتداء الثياب الزرقاء والقبعة السوداء .

٣

فى ويمار

زار فى سنة ١٧٧٤ مدينة فرانكفورت شخصان غريبا الأطوار، تأثر جوته بتعاليمهما على ما فيها من اختلاف النزعات. كان أولهما « لا فاتر » عالم دينى متصوف، وثانيهما « بيزادو » أستاذ فى علم التربية. وكان الأول تقياً صالحاً وديع القلب، يحاول أن ينشر بين الناس تعاليم الدين الصحيحة، وكان الثانى شرس الأخلاق، يحب الجدل العنيف، وينشر عقيدة جان جاك روسو فى حب الإنسانية والإيمان بالطبيعة. وقد أحس جوته بأنه موزع بين هذين الشخصين، يود لو أنه ضمهما معاً فى دخيلة نفسه، ولكن رجل الإنجيل لم يظفر بنفسه، وداعية « الانسيكلوبيديا » لم يستأثر بعقله. وعند ما سافرا من فرانكفورت تبعهما جوته أياماً ثم انفصل عنهما، ولحق بالفيلسوف «فريديريك جاكوبى» بمدينة كولونيا، ودرس عليه فلسفة اسبينوزا، ذلك الفيلسوف الذى كان مطمئناً إلى مواهبه اطمئنان جوته إلى نفسه. وكيف ينكر

الإنسان عظمة نفسه وهو يشعر أنه قبس من الطبيعة الالهية ، وأنه يساهم فى مقدرتها على التجديد والخلق .

لعل جوته لم يشعر بعظمته فى طور من أطوار حياته مثل شعوره بها فى ذلك العهد ، بعد الفوز الذى أصابته قصته «آلام ورتر» والرسائل العديدة التى صارت ترد إليه . فأخذ يكتب من جديد ، ونشر قصة «كلافيجو» مقتبسة من ذكريات «بومارشيه» وذكرياته ، فمثل فيها نفسه وصديقه «ميرك» ، ويقال أن خير ما فيها ما ترجمه فى أمانة عن الأصل الفرنسى . ثم شرع فى كتابة قصص أخرى منها «فوست» و«محمد» و«بروميته» و«اليهودى التائه» ، وحاول درس عظماء التاريخ . ولم ينقطع عن نظم الشعر ومجادلة الأفكار والآراء يتناولها من طرفيها القصيين ، كما فعل فاوست فى قصته . فهو تارة فريسة شيطان ماكر متهكم قاس ، وتارة أخرى خاضع لقوة ربانية خالقة نيرة ، تسمو إلى قمم الإيمان والتصوف ولم تكن حياته خاصة إلا صورة لذلك التناقض الفكرى ، فقد أخذ فيها بلون غريب شاذ غير خاضع لقواعد العقل وقوانين الحياة ، وعاد إلى مغازلة الجنس اللطيف ، كما كان يفعل من قبل .

وقد حدث فى أوائل سنة ١٧٧٥ أن سمع فتاة تدعى « ليلى شونمان » تضرب على البيانو ، فأحبها ولازمها ، وصار يراسلها إذا انقطع عنها . وقد كتب إليها فى إحدى رسائله أنه يشعر بازدواج شخصيته ، فهو حيناً رجل المجتمع الذى يتأنق فى ثيابه و يتظرف فى أحاديثه ، وحيناً آخر رجل الطبيعة يرتدى الثياب الخشنة ، و يطوف الحقول و يشعر بقرب الر بيع ، و يعيش فى دخيلة نفسه حياة كلها عنف وقوة وعمل، محاولاً أن يعبر قدر استطاعته عن عواطف شبابه البريئة بشعر قوى متين ، وأن يضمن قصصه ز بدة الحياة وخلاصتها .

ثم خطب جوته ايلى إلى أهلها ، ولكن شيطانه لن يتركه وشأنه، لأنه أبداً يلعب به ليدمى قلب من يحبه . فقد كتب إلى صديقه « هردر » فى ١٢ مايو سنة ١٧٧٥ يقول : « ظننت أخيراً انى قد أنتهيت إلى ميناء السلام والسعادة العائلية، ولكنى أشعر من جديد بقوة تدفعنى إلى البحار العاليـة » . وفى ذلك اليوم غادر مدينة فرانكفورت قاصداً سويسرا ، برفقة صديقين له، ولكنه شعر فى طريقه بالحنين إلى خطيبته ، فعاد أدراجه إليها فإذا هى قد تغلبت على حبها تحت تأثير أبويها ، وتغير قلبها عليه ،

وفصمت عرى الخطبة التى كانت تربطها به .

كان يحكم مدينة « ويمار » فى ذلك العهد أمير شاب يدعى « الدوق شارل أوجست » . وكان هذا الأمير قد دعا « جوته » لزيارته ، فلبى الدعوة وسافر فى أكتوبر سنة ١٧٧٥ ، بعد أن طاف بمنزل حبيبته وشاهد طيفها من بعيد . ولعله فكر فى هذا السفر حين كتب فى قصة « إيجمون » يقول: « تندفع خيول الشمس (يعنى التقادير) بمركبة مصيرنا الخفيفة كأنها مسوقة بمهاميز أرواح خفية ، وليس علينا إلا أن نمسك عنانها بأيد قوية لنحيد بعجلاتها إما يمنة وإما يسرة عن حجر من هنا ومهواة من هناك ، ومن يدرى إلى أين تسير . إننا لا نكاد نذكر من أين جئنا » .

وصل جوته إلى « ويمار » وهى مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها ستة آلاف فقط وكان القصر والحاشية مزيجاً غريباً بين الفخامة والبساطة . فكانت تدير دفة الحكم والدة الأمير « الدوقة إميلى دى ساكس ويمار »

وكان الأمير فى الثامنة عشرة من عمره ، مسرفاً فى اللهو والشراب والغزل ، على الرغم من زواجه بأميرة شابة ، فصحبه

جوته فى ملاهيه، فكانا يقضيان الليل فى العبث والشراب حتى ذاع خبرهما وكثر لائموهما .

حاول جوته أن يستفيد من صداقته للأمير ، فسعى لديه لتعيين صديقه « هردر » واعظاً للقصر، فعينه غير آبه باحتجاج أهل التقوى من رعيته . أما جوته نفسه فقد تقلب فى مناصب الدولة ، لأنه عين أولاً مستشاراً مساعداً للمجلس الخاص ، ثم مستشاراً خاصاً للامارة ، وفى سنة ١٧٧٦ عين مديراً للمسرح، وفى سنة ١٧٧٧ رئيساً لمجلس الهندسة الموكول اليه إعادة بناء القصر، وفى سنة ١٧٧٩ مديراً لإدارتى الحرب وبناء الجسور (الكبارى) ، وأخيراً فى سنة ١٧٨٢ مديراً للمالية . وهكذا ارتقى عاماً فعاماً سلم الوظائف لخير إمارة « ويمار » .

ولكن هذه الوظائف وعطف الأمير تركا فى قلبه فراغا لا يملؤه غير الحب، وقد وجده عند سيدة فى الثالثة والثلاثين، أى أنها تكبره بسبع سنوات تدعى « شارلوت دى ستين » زوج رئيس اسطبلات القصر ووصيفة شرف الدوقة الوالدة ، ولم تكن هذه السيدة على قسط وافر من الجمال ، ولكنها كانت ذات مواهب عقلية ممتازة وثقافة عالية وإرادة قوية بحيث استطاعت

أن تفتن جوته وأن تسيطر على عواطفه الجامحة فتجعلها منتظمة منسقة. ولذلك كثر جدل المؤرخين في طبيعة حب جوته لها ورأى الكثيرون منهم، وفي طليعتهم أميل لودويج، أن هذا الحب بقي من نوع «الهوى العذري».

وعلى الرغم من أن العاشقين كانا يتلازمان النهار كله وشطراً من الليل فإن سكان مدينة (ويمار)، على ما اشتهر عنهم من حب النميمة والتدخل فيما لا يعنيهم، ظلوا يعتقدون بطهارة ذلك الحب.

وهكذا قضى «جوته» تسع سنوات بمدينة ويمر موزعا بين المناصب الرفيعة التي القيت اليه مهامها، والملاهي التي كان يلهوها مع الأمير، وحبه شارلوت دي ستين ولكن هذا جميعه لم يلهه عن الأدب والعلم. وإذا صح أنه لم ينشر كتابا في ذلك العهد إلا أنه كتب مسرحية «ايفيجينيا» نثرا، وابتداء مسرحية «تاسو»، واشتغل في تأليف قصة «وهلم ميستو»، ونظم شعراً كثيراً، ودرس بعض العلوم كالطبيعة والتحليل والنبات وبذل في تحصيلها جهداً وفيراً وذكاء وقاداً، واستفاد من المناصب التي تولاها ملاحظات جديدة. وهكذا صار عقله يتغلب شيئاً فشيئاً

على عاطفته ، حتى صار يشبه نفسه بربان باخرة جرىء يرى باخرته ألعوبة بين الرياح والأمواج .

ولكن هذا العمل الطويل أتعبه وأضناه ، ولعل ذلك الهوى العذرى الذى كان يعذبه بين حين وحين زاد فى ضعف أعصابه، فاستأذن بالسفر الى أنترلاكن للاستجمام ، وإنما كان يقصد فى حقيقة الأمر الهرب إلى أبعد منها. وهكذا بعد خروجه من «ويمار» سافر يوم ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٦ متخفياً باسم «جان فيليب مولر» تاجر من « ليبزيج » وانقطعت أخباره عن الأمير .

ويقال أن هذا الأمير كان يعرف عزم « جوته » على الهرب وكان راضياً عنه ولكنه كان يجهل ، كما كانت مدام دى ستين تجهل ، إلى أى مصير يتجه .

٤

ايطاليـا

كان جوته يقصد من رحلته زيارة إيطاليا والاستمتاع بما فيها من آثار فنية ، لذلك لم يكد يجتاز حدودها حتى أخذ يهتم بالمظاهر الفنية البارزة فى كنائسها وقصورها ومتاحفها . ولما انتهى إلى روما حل ضيفاً على الرسام « تشبين » وطفق يطوف المدينة كلها لمشاهدة آثارها الرائعة . وقد أقام فيها أربعة أشهر محتفظا بتنكره ، رافضاً قبول الدعوات والولائم ، منصرفا إلى التأمل والدراسة .

أحدثت هذه الأشهر التى صرفها جوته فى الدرس تطوراً كاملا فى علمه وفنه . كان فى أوائل حياته يدين بمذهب الأتقياء من سكان فرانكفورت ، ويرضى بمبادىء المسيحية التى ينشرها « لافاتير » ، ثم تحول إلى الفلسفة الدينيـــــة التى تلقاها عن « جاكوبى » ومذهب وحدة الوجود (بانتيسم) الذى أخذه عن «سبينوزا» ، ثم أخذ هذا المذهب فى ذهنه شكلا علمياً بعد أن درس العلوم الطبيعية . حتى إذا حل بايطاليا صار لا يعنى بغير

الفن القديم ويصدف عن كل ما خلفته المسيحية من آثار بارزة .

كان جوته قد تخلص من مذهب الابتداعية (رومانتسم) واطمأن إلى عقله وقلبه ، وكان فى طمأنينته هذه يقابل بين الفن اليونانى القديم الذى يمثل الراحة والطمأنينة فى أسمى شكل وأروع مظهر ، وبين الفن الغوطى الذى رآه من قبل فى كاتدرائية ستراسبورج وغيرها من الكنائس ، وقد تمثلت فيه معانى التضحية وصراخ الأجسام المعذبة بين الفن اليونانى الصاعد منتصراً من الأرض إلى السماء ، وبين الفن الغوطى المسيحى الخاضع لمذهب مسنون للعقل والحياة .

وقد اختار جوته وهو فى حالته النفسية والعقلية التى أشرنا إليها الفن اليونانى. وقد كتب مرة : « إن النسيم الذى يهب من القبور القديمة يحمل عبقاً كأنما اكتسبه من حديقه حافلة بالورد إننا لا نجد فيها فرسانا ساجدين فى خشوع انتظاراً لبعث سعيد. لقد مثل الفنان فيها الرجال ببساطة ، فلا هم يضمون أيديهم ، ولا هم ينظرون إلى السماء ، لكنهم مماثلين لما كانوا عليه طيلة حياتهم » .

أقام جوته فى روما شهوراً ، ثم طاف ببلاد إيطاليا حتى صقلية

واستقر ردحا من الزمان بمدينة « نابولى » حيث رضى بأن يعود إلى الحياة العامة فيحضر الحفلات و يشهد المآدب . وعاد إلى روما وهو يحس فى دخيلة نفسه بنشاط بارز ، فأخذ يعنى بفن الرسم ، و إذا هو لم يبرز فيه غير أنه كسب أدبه دقة ملاحظة وقوة وصف ، ظهرا فيما نظمه فى تلك الحقبة . ثم جمعه فى ديوان أسماه « أغانى رومانية » .

و يقال أنه كان لعلاقته الغرامية بفتاة رومانية تدعى « فوستينا » أثر فى انفراج الأزمة التى كان يحس بها فى نفسه وأعصابه عندما غادر و يمار . وقد عاد إليها بعد هذه الهجرة الطويلة فى أوائل مايو سنة ١٧٨٨ .

٥

من البندقية إلى الحرب

استقبلت مدينة « ويمار » أديبها الكبير فى فتور يداخله كثير من الفضول ، وكان سكانها حانقين عليه ، لأنه كان طيلة هجرته يقبض راتبه الضخم وينفقه فى بلاد غربية ولا يؤدى عملا يوازيه . وكان قد نضب معين شبابه الذى أوحى إليه شعره الوجدانى نخلب به قلوب النساء وسحر عقولهن ، وبينا هو يشهد كيف يخبو نجمه أمام الجماهير التى لا تفهم تفكيره وفلسفته ، والقوة التى صارت تدعم فنه ، كان يرى أهلة جديدة تسطع فى عالم الأدب وتتبوأ مكانه من قلوب النساء ونفوس الجماهير . فشعر فى نفسه بوحشة قوية ، زاد فيها أن صديقته القديمة « شارلوت دى ستين » كانت تتمشى بخطى واسعة نحو الشيخوخة والذبول ، ولم يزل عنه آلام تلك الوحشة غير فتاة عرفها أيامئذ ، وهى التى صارت فيما بعد شريكة حياته .

كانت هذه الفتاة ، واسمها « كرستيان فيلبيوس » ، ابنة موظف سابق فى قسم المخطوطات توفى إلى رحمة الله ، وكان لها

أخ يميل إلى الأدب ويبحث عن عمل يكسب به قوته ، فذهبت « كرستيان » إلى جوته ترجوه توظيف أخيها ، فأعجب بشبابها ونضارتها وابى طلبها وأحبها .

كانت كرستيان من طبقة شعبيه ، قصيرة عبلة ، ليست عليها مسحة الأناقة والرشاقة ، وقد ظلت كذلك ، طيلة حياتها ، فلم تستطع أن تسمو إلى طبقة صاحبها، فشاء جوته أن تظل علاقته بها سرية ، وكيف السبيل إلى ذلك فى بلد صغير كويمار ؟ فلم تنقض شهور على معرفته لها حتى صارا حديث المدينة كلها ، وقد رزق منها ابنا يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٨٩ كفله فى حفلة عماده الدوق « شارل أوجست » نفسه . وقد أراد بعمله هذا أن يحمى صديقه من المجتمع الضيق الذى أخذ يتألب عليه طعناً وتجريحاً، وقد أبى جوته الزواج بها كى لا يضطرها إلى حضور حفلات القصر حيث تكون عرضة لضحك القوم وتهكمهم .

وقد أذكى حب جوته الجديد فى قلبه الشاعرية التى خبا نورها زمناً ، فاستوحى صاحبته بعض أغانيه الرومانية، مازجا بين صورتها الماثلة أمامه و بين صورة « فوستينا » الماثلة فى ذهنه ذاكراً بين ذراعيها تلك الأنصاب اليونانية القديمة ، فصار يصفها

فى جمال لا يقل روعة عن جمال تلك الأنصاب .

وفى شهر مارس سنة ١٧٩٠ سافر جوته إلى البندقية ليستقبل الدوقة إميلى، الأميرة الوالدة ، فى عودتها من إيطاليا، فكان يقابل بين هذه الرحلة المقيدة بالتقاليد والمراسم و بين رحلته الأولى الحرة الطليقة . وقد نظم فى أثناء هذا السفر ديوان «أشعار البندقية » مازجا فى قصائده بين الشعر والفلسفة ، مبديا آراءه فى الثورة الفرنسية التى كانت نارها ذاكية أيامئذ .

كان جوته بطبيعته ميالا إلى النظام والسلام ، لذلك نجده برما بالثورة الفرنسية يهاجم رجاله فيما نظمه من شعر فى ذلك العهد ، وخاصة فى ديوان « أغانى البندقية » .

رغب إليه أمير ويمار أن يرافقه إلى ميدان الحرب التى شنتها الدول أيامئذ على فرنسا ، والتى انضمت فيها مقاطعته إلى سائر المقاطعات الألمانية ، فاضطر جوته إلى مرافقته وقد قص ما رآه فى كتاب عنوانه « حرب فرنسا » ، ذكر فيه ما شاهده بنفسه وأهمل ماسواه .

كان جوته يشعر أن الثورة والحرب تخالفان معتقده وآراءه وطبيعته ، فحمل عليهما فى نقد مرير فى بعض الكتب التى ألفها

فيما بعد بعنوان « القفطي الكبير » و « المواطن العام » و « الثائرون » وهي قصة لم يتم تأليفها . ولكنه عاد بعد ذلك إلى الثورة الفرنسية فدرس أخبارها في تفكير حر بعيد عن هوى النفس ، فأنصف رجالها في قصة ظهر الجزء الأول منها بعنوان « الابنة غير الشرعية » ، وقد وصفها بعضهم بأنها قصة « ملساء باردة كالرخام » .

٦

قصص

استفاد جوته من رحلته إلى إيطاليا أنه استطاع أن يتم الروايات التى كان قد ابتدأها فى ويمار ، واستفاد من عزلته فى « ويمار » بعد عودته من إيطاليا أنه استطاع أن ينشر مؤلفاته كاملة فى ثمانية مجلدات بين عامى ١٧٨٧ و ١٧٩٠ ، وقد ظهر بين هذه المؤلفات غير ما ذكرناه من قبل ثلاث قصص نعرض لها فيما يلى :

١ — « إيجمونت »

هى قصة تمثيلية فى خمسة فصول ، استمد جوته حوادثها من حياة فارس من فرسان القرن السادس عشر الذين ناضلوا فى سبيل تحرير أوطانهم وإنقاذها من نير أعدائها . وكان اسمه « لامورال كونت دى إيجمونت » وكان بلجيكيا ولد بمدينة روسيه سنة ١٥٢٢ واشترك مع ملك إسبانيا « شرلكان » وخليفته « فيليب الثانى » فى عدة حروب ، ثم ترك خدمة هذا الملك الأخير وانفصل عنه عندما أخذ يجور فى حكم رعيته

وخاصة فى بلاد « الفلاندر » التى ينتمى إليها « إيجمون » ، فأنشأ فيها محاكم التفتيش لإدانة البروتستانت ، وكان أن عين فيليب الثانى حاكما على بلجيكا وهولندا أحد أعوانه المشهورين بالظلم والجور واسمه « الدوق دالب » فاتهم « إيجمون » بالتآمر على الملك ، ولم تنفع شفاعة أصدقائه ، ولا إقامة الدليل على إخلاصه ، فأعدم فى إحدى ساحات مدينة « بروسيل » سنة ١٥٦٨ ، وصار البلجيكيون ينظرون إليه كأحد أبطالهم الذين ناضلوا فى سبيل حرية بلادهم .

والموضوع كما ترى طريف شائق جدير بأن تستوحى منه (تراجيديا) رائعة ، وهذا ما فعله « جوته » .

تبتدىء القصة بأن فيليب الثانى تعب من أين « مرجريت دى بارم » التى كانت تحكم مقاطعات هولندا فشاء أن يولى عليها من يحكمها بالعنف ويأخذها بالشدة فأرسل بدلا منها « الدوق دالب » وكان الملك يخاف زعامة « البرنس دورنج » و « الكونت دى إيجمون » ويتهمهما بأنهما يمالآن البروتستانت سراً . وقد مثل « جوته » « إيجمون » فى صورة خلابة محبوبة ، فجعله معبود جنوده البواسل الذين قادهم إلى النصر مراراً ، وأمين الأميرة

الإسبانية حاكمة البلاد ، وزعيم مدينة بروسيل المطالب باستقلالها، والمدافع عنها لدى البلاط الملكي . فإذا جاء الدوق « دالب » رغب « البرنس دورنج » إلى إيجمون أن يهرب مختفياً عن مسرح السياسة ، كي ينساه الحاكم الغشوم . ولكنه أبى الهرب من المدينة ، فعاش منزوياً في بيت معشوقته « كلارا » وكانت فتاة من الطبقة البورجوازية ، بسيطة الطباع ، فضولية ، حرة الأخلاق ، مرحة القلب ، طيبة النفس ، تعجب بحبيبها أشد العجب .

جاء الدوق دالب إلى بروسيل ، فعم الخوف سكان مقاطعة الفلاندر ، ولكن الدوق جبن عن القبض على إيجمون ، وكان للدوق ابن يدعى « فرديناند » شديد الإعجاب بالبطل البلجيكي ، فرغب إليه أن يتداخل بالصلح بينهما وأن يدعوه إلى زيارته في قصره ، ففعل الشاب ، واطمأن إيجمون إلى الحماس البارز في قوله وعمله ، فظن منه أن ولد فتى كهذا لا يستطيع أن يكون عدواً ماكراً .

وقف الدوق « دالب » على شرفة قصره المنيف القائم على هضبة تشرف على المدينة ينظر إلى « إيجمون » ، وقد امتطى صهوة خير جياده ، وهو يرقى صاعداً إليه ، وقد خفق قلب

الدوق جذلاً وحبوراً لأن عدوه سوف يصبح فى قبضة يده ، ولم يكد يدخل « إيجمون » القصر حتى صرخ الحاكم قائلا : « قدم فى رحبة القصر . . . والثانية . . أغلقت الأبواب . صار فى قبضة يدى» ، فإذا مثل « إيجمون » أمامه أخذ الدوق «دالب » يتحدث إليه مدافعاً عن سياسة العنف التى اضطرته اليها الظروف ، محاولا بهذا الحديث أن يثير نفس الفارس الشريف وأن يحمله على التفوه بكلمات تكون مبررة للقبض عليه ، ولعله كان يبغى منها ما يبرر به ، أمام نفسه وضميره ، جريمة القبض عليه ، وقد كان له ما أراد ، فألقى القبض على الفارس وأودع السجن وشاع فى المدينة أنه سوف يعدم ، فلم يتحرك سكانها لإنقاذه، لأن الذعر استولى عليهم ، كانوا لا يزالون متأثرين بالعنف مستسلمين للاستبداد ، وحاولت عشيقته « كلارا » أن تستنهض الهمم المتقاعسة ، وأن تخطب فى الجماهير داعية إلى الثورة ، فذهبت نداآتها عبثا .

أما « فردينان » ففهم بعد لأى أنه كان ألعوبة فى يد والده للوصول إلى مآربه الأثيمة ، وحاول أن ينقذ « إيجمون » ، فأبى هذا عليه ورجاه أن يحمى « كلارا » ويعنى بها من بعده ، ولكن

العشيقة الأمينة انتحرت بعد أن يئست من إنقاذ حبيبها حتى لا تعيش بعده ، ثم نفذ حكم الإعدام فى « إيجمون » ، فشعر قلب الشاب « فردينان » بالحفيظة على أبيه حتى صار يبغضه ، فكانت هذه الحفيظة خير قصاص للدوق ، وهو الذى لم يختلج قلبه بحب أحد غير حب ذلك الابن .

توفرت هذه القصة كل العناصر الضرورية للتراجيديا والملابسات والحوادث الخليقة بها . ففيها فارس همام ، وأخلاق نبيلة كريمة ، وفتاة طيبة القلب ساذجة يسمو بها الحب إلى مقام البطولة ، وحاكم جائر غاشم . ثم يسيطر على القصة صراع عنيف ناشب بين الوطنية والاستبداد ، وبين الحرية والاستعباد ، وبين التعصب والتسامح فى الدين .

على أن جوته لم يستفد من هذا جميعه إلا على قدر، بحيث لم تستطع تلك الملابسات المختلفة أن تجعل من هذه القصة (تراجيديا) تامة ، فهى لم تتعد فى مجموعها بعض صور تاريخية بديعة التأليف حسنة الوصف .

وقد شرع جوته فى تأليف روايته هذه عام ١٧٧٥ وأتمها عام ١٧٨٧ ، وكان طوال هذه السنين يفكر فيها . ويعيد النظر ،

ويتحدث عنها فى كتاب تذكاراته يوما فيوما . وكان جوته أيامئذ يتطور بين مذهبه الوجدانى العنيف القديم وبين تفهمه الجديد للفن والجمال وطموحه نحو المثل العليا والكمال فى الأدب . ولعل هذا التطور فى المذهب وذلك التباعد فى الزمان بين الشروع بكتابة القصة وختامها هو الذى أضر بوحدتها وروعتها .

٢ — « إيفيجينيا »

أخذ « جوته » موضوع هذه القصة عن الأساطير اليونانية ونسج فيها على منوال « أوريبيد » الشاعر الفيلسوف اليونانى . وكان قد سبقه الشاعر الفرنسى « راسين » فى القرن السابع عشر فاستمد من أوريبيد موضوع روايته هذه ولكن جوته خالفهما فى الخيال والتأليف .

كتب « جوته » قصته هذه نثراً أثناء إقامته فى « ويمار » عام ١٨٧٩ وكان وقتئذ خاضعاً فى حبه لمدام دى ستين التى ذكرنا أنها هذبت حواشى نفسه فأنقذتها من اضطرابها وأعادت إليها توازنها ، كما أنقذت « إيفيجينيا » أخاها « أورست » من أيدى « الامينيد » . وأفرغ « جوته » هذا النثر فى قالب

شعرى عام ١٧٨٦ فى غصون رحلته إلى إيطاليا ، ومثلت المسرحية عامئذ ببرلين .

أنقذت الإلهة « ديانا » الفتاة « إيفيجينيا » من التضحية للآلهة ، ونقلتها إلى إقليم « طوريد » الذى يقع فى روسيا الجنوبية حيث أصبحت كاهنتها ، وشرعت تعنى بتهذيب طباع سكان هذا الاقليم الوحشية ، واستطاعت أن تحملهم على الاقلاع عن عاداتهم أن يذبحوا كضحية للإلهة « ديانا » كل الغرباء الذين يأتون إلى بلادهم ، ورغب إليها الملك « تواس » أن تتزوج به فأبت ، لأنها تريد العودة إلى وطنها . فهاج الملك إباؤها هذا وأمر بالرجوع إلى عادة تقديم الغرباء ضحايا للإلهة « ديانا » ، وهكذا رأت « إيفيجينيا » نفسها مضطرة إلى ذبح شابين يونانيين وجدا فى بعض الكهوف على الشاطىء ، وقد عرفت فى أحدهما أخاها « أورست » وفى ثانيهما صديقه « بيلاد » .

ويظهر « أورست » فى أول القصة بمظهر الشاب السوداوى المزاج الدقيق الإحساس المصاب بتباريح ألم دفين ، فهو قبس من « ورتر » . وكان ينقم على أسرته أنها اعتادت الاجرام بين الإخوة ، فبدت عيناه هيجان نفسه واضطراب أعصابه ثم نام فرأى فيما

يراه النائم أسرته ملتفّه حول الاجـداد الذين غضبت الآلهة عليهم ، فتابهت فيه فكرة الأسرة . وحين أفاق كان قد شفى من آلامه وعاودته طمأنينته .

وكانوا يبحثون عن وسيلة للخلاص من حكم الموت الذى قصى به عليهم الملك « تواس » والهرب من وجهه حاملين معهم تمثال الإلهة « ديانا » ، وكان أبولون قد ظهر لأورست من قبل فى الحلم وطلب إليه إنقاذ أخته ، فأشار « بيلاو » بأن يتقدم أحدهم إلى الملك فينصحه بوجوب غسل التمثال بمياه البحر لتطهيره من الدنس الذى ألحقه به « أورست » وأنه لا يستطيع هو ولا أحد من جنده حضور هـذه الحفلة ، وألح على « إيفيجينيا » بأن تقوم بهذه المهمة لدى الملك ، ولكن الفتاة الطاهرة الذيل أبت أن تخدعه . وهو الذى أحبها فى قصره ، وتقبلها كابنته ، وأجرى خيره عليها . فلم تقمع برفض ما طلب منها ، بل افضت إلى الملك بالحقيقة ، فأعجب الملك بصراحتها وإخلاصها ، وأذن لها بالعودة إلى بلادها برفقة أخيها وصديقه . وهكذا استطاعت فتاة نبيل نفسها بكبير أن تمحو تفوق الرجال ومكرهم ، وقد فتح نصرها ذهن أخيها « أورست » ففطن إلى

أن الإله « أبولون » حين أمره بأن يعيد أخته من أقليم طوريد إلى بلاد اليونان إنما عنى شقيقته « إيفيجينيا » لا تمثال « ديانا » أخت الالهة .

على أن الملك أراد أن يمنع السفر بعد أن أذن به ، فذكرته « إيفيجينيا » بوعده . فأقره مرغماً غاضباً ، فأبت السفر كأنها منفية مبعدة . وطلبت من الملك أن يبسط يده عليها مباركا مودعا بكلمات عذبة ، دليلا على رضاه عنها وحبه لها ، فبسط الملك يده لها قائلا « الوداع » .

هذه خلاصة القصة كما وضعها « جوته » وهى تختلف تماماً فى نفسية أشخاصها عن قصة « أوريبيد » اليونانية ، ففى هذه الأخيرة تظهر « إيفيجينيا » فتاة مخادعة ماكرة منتقمة ، بينما صورها « جوته » فتاة نبيلة العواطف طاهرة الذيل كريمة الأخلاق . يقول الملك « تواس » أنها قديسة ، ويحييها « بيلاو » كأنه مظهر الألوهية . ويشبهها « إورست » بالآلهة أو بأحد الأنصاب المقدسة التى تقام فى المدن لوقايتها وحمايتها .

على أن « جوته » قد جعل فيها فوق هذه المواهب مزايا الأنوثة وطبائعها ، فهى ذات إحساس دقيق وشعور فياض ، تحن

إلى وطنها وتصغى حينا لنصائح « بيلاو » الذى كان يطلب إليها أن تغدر بالملك وتخدعه ، ولكنها لاتصغى فى النهاية إلى غير ضميرها ومايقضى به عليها الواجب .

وهذه الأخلاق القوية تبتعد بها قليلا عن الصفات اليونانية فى تلك الحقبة من الزمان ، بل إنها كما قال « جوته » لا تنطق بكلمة لا تستطيع القديسة « أجات دى بولون » أن تتحدث بها .

ويشعر مطالع هذه القصة بأنها كتبت بتأثير سيدة حسنة الأخلاق طموحة إلى مثل عليا فى الحياة ، كما كانت مدام دى ستايل ، وأن حوارها فلسفى يلذه ويستهويه ، ولعلها إذا مثلت على المسرح كانت مملة مرهقة ، لأن حوادثها بالرغم من تسلسلها وجدانية صوفية فى مظهرها ، أكثر مما هى قوية عنيفة تبعث الحماس فى نفس المشاهد ، فهى إلى قصيدة طويلة جميلة أقرب منها إلى قصة تمثيلية .

وهذه القصة تجمع بين القديم والحديث ، فإن جمال شكلها واتزانه ووضوحه يجعلها خير مثال للفن اليونانى ، بينما دقة العواطف وعمقها يجعلها عصرية محضة .

٣ — « توركاتو تاسو »

هي قصة تمثيلية شعرية فى خمسة فصول أخذ « جوته » حوادثها من حياة الشاعر الإيطالى المعروف « توركاتوتاسو » أو كما يسميه الفرنسيون « لوتاس » ، الذى ولد بمدينة سورانته فى ١١ مارس سنة ١٥٤٤ وتوفى بمدينة روما يوم ٢٥ أبريل سنة ١٥٩٥ ، وكان هذا الشاعر وافر الذكاء سريع الخاطر ، وكان إلى هذا شديد الزهو والخيلاء ، كبير الإعجاب بنفسه ، يود لو أن ملوك المقاطعات الإيطالية كلها يعطفون عليه ويقربونه منهم . وقد نظم قصيدته المشهورة « أورشليم المنقذة » من نوع (الايبوبه) ولعلها من خير الملاحم التى نظمت فى غير التاريخ القديم . ويقال أنه أراد أن يتقرب بها إلى أولئك الملوك، لأنه لما كان موضوع القصة يتناول حروب الصليبيين ، وكان لايزال هناك الكثيرون من عائلات ابطالها احياء ، خيل له أنهم سوف يتزلفون إليه لكى يذكر أسرهم فى شعره ، وهكذا كان ، ولكنه لم يكد يتم نظمها حتى كانت وبالا عليه لان كثرة تنقله بين أمراء المقاطعات أحفظ عليه قلب الأمير المتصل به ، والذى كان يجرى عليه الأرزاق والنعم ، ولأن الشاعر ظن أن الأمراء يتحايلون عليه

اسرقة القصة قبل نشرها كى يحوروا فيها ويضيفوا إليها ، ثم اعترته وساوس وساورته خيالات أخرجته فى بعض الأحايين عن أطواره المعتادة ، فكان يخيل له أنه مضطهد ، وأن الناس متحالفون على عدائه ، فصار كثير التنقل ، لا يبالى بالفقر والبرد والتعب، وزاد فى الدل على أميره حتى زجه فى السجن ، فظل فيه سبع سنوات ، ثم أفرج عنه فلم يعمر بعد ذلك طويلا .

عرض « جوته » فى قصته لحياة « تاسو » فى عهد اتصاله الأول بالأمير « ألفونس ديست» . وتجرى حوادثها بين فريقين من الأشخاص : الفريق الأول « تاسو » والأميرة ، وهما بعيدان عن سير تلك الحوادث، ولا تظهر أخلاقهما إلا من خلال الحوار المنسق الذى يجرى بينهما ، والفريق الثانى : « أنطونيو » أحد رجال العصر « والكونتس ليونور » اللذان يعدان قوام القصة، بما يدبرانه من الدسائس ويحيكانه من الحبائل ، أما الأمير « ألفونس » فهو حلقة الاتصال بين هذين الفريقين المتناقضين كتناقض الخيال والواقع .

تبتدىء القصة بمشهد السيدتين ، الأميرة والكونتس وهما تتنزهان فى الحديقة، وقد بدت فيها تباشير الربيع، فأورقت غصون

الأشجار ، وتحلت بالأزهار العبقة ، فأعدت السيدتان إكليلين ، وخصت الأميرة إكليلها بالشاعر ، لأنه أتم قصيدته « أورشليم المنقذة » فلا يكاد يتقبله « تاسو » فرحاً ، لاعتقاده أنه دليل على حب الأميرة له : هذه الأميرة التى شغفه حبها وتيمه ، إنه لا يكاد يتقبل الإكليل حتى يظهر « أنطونيو » مستشار الدوق ، فيلتقى الرجلان ، أما الشاعر فثمل بنشوة السعادة التى تبينها فى حب الأميرة ، وأما المستشار فمسرور لأنه قام خير قيام بمهمة سياسية ألقاها إليه الدوق ، وهو يحسد الشاعر لدلائل العطف الذى يلقاه والإجلال الذى يحاط به .

نلمح من أول حديثهما البغض الذى يضمره الثانى الأول ، وحوادث القصة كلها وليدة هذا البغض .

تجرأ « تاسو » أن يبوح بحبه للأميرة ، فلم ترفضه ، ولكنها لم تشجعه ، فزاد فى غبطته وسروره ، ونصحت له الأميرة أن يصطلح مع «أنطونيو» ، فيمتثل لإرادتها و يذهب إليه ، ولكن «أنطونيو» لا ينيله رغبته بل يعامله معاملة الأطفال ، و يأبى أن يسلس له القياد ، على علمه بطباعه المتمردة الحذرة التى صقلها الحب إلى حين ، فتثور نفس « تاسو » و يستل حسامه ليحاسب غريمه على ما يقول ،

فيأبى «أنطونيو» مبارزته، بحجة أنهما فى قصر الأميرة، فيدعوه الشاعر للحاق به فى أى مكان يختاره . و بينما هما فى هذا الحوار يدخل الأمير فيعرف ما جرى بينهما ، و يستطيع مستشاره أن يستميله بدهائه، فيغضب على «تاسو» و يأمر به فيلقى فى السجن، بعد أن يؤخذ منه سيفه وتاجه، على أن مقامه فى السجن لا يطول لأن « أنطونيو » أصبح لا يخشى بأسه بعد الذى جرى ، وهو يدلى فى فصل ممتع إلى « الكونتس ليونور » بسبب حفيظته على الشاعر : أنه وجده بعد عودته من روما حائزاً لرضى الأمير ونواله ، من غير أن يأتى أمراً هاماً يجعله خليقاً بهذا العطف ، ورآه يضفر على رأسه إكليل غار بيد أجمل النساء وأنبههن، على أنه حين قاس قوته بقوته ودهاءه بدهائه أيقن أنه أصلب منه عوداً وأشد دهاء ، فملك زمام ما بنفسه نحو الشاعر . لأن هذا الأخير لا يستطيع أن يطاوله قوة مراس وشدة ودهاء .

شاء « تاسو » أن يغادر القصر بعد أن أفرج عنه، هرباً من الشباك المنصوبة له فيه ، فيحاول « أنطونيو » باسم الصداقة أن يرجعه عن قصده ، مبرهناً بذلك على أنه خير مثال لأخلاق رجال بطانة الملوك فى ذلك العصر ، ورأى « أنطونيو » أنه كان

السبب فيما جرى للشاعر، وأن أعماله هى التى حملته على مغادرة القصر، لذلك وجد لزاماً عليه أن يقنعه بالبقاء، ولكن الأمير يعلم من أمره ما لا يعلمه مستشاره، فلا يكاد يتحدث إليه عن أخلاق «تاسو» وما فيها من شذوذ وسرعة نفور حتى يتم «أنطونيو» الوصف بطريقة هزلية مقذعة، وينصح للأمير أن يتركه يذهب حيث يشاء.

مثل «جوته» فى هذه القصة الصراع العنيف القائم أبدا بين عالم الخيال وعالم الحقيقة، وأظهر الفرق بين نفسية الشاعر ونفسية غيره من عظماء الرجال، ودل على ما فى عطف الأمراء على شاعر عبقرى من شر وإحراج لهذه العبقرية، بالرغم من حب الأمير للأدب وتشجيعه له. وهو بين هذا وذاك يصف ما فى حياة القصور من عظمة وجلال، وما يتربص بها من زوال وفناء ويقال إنه وصف فيها بعض الشخصيات الذين عرفهم فى قصر «ويمار»، وإنه كتبها بينما كان لا يزال متأثراً بحب «مدام دى ستين» التى شاء أن يمثلها فى الأميرة، ونحن نذكر علاقتهما البريئة. ومحبتها تهدئه ثورته وكبح غلوائه، حين نطالع فى القصة ما تفضى به الأميرة لشاعرها حين تذكر أنها انتظرت منذ رأته

أنه سينيلها لذة جديدة قائمة على متعة فكرية ، وأن السعادة فى الحب قائمة على المرأة وعلى اتحاد الأرواح اتحاداً صوفياً بحتاً ينفى الرغبات الباطلة والشهوات الدنيئة، لأن الاتصال الجسمى وهم زائل ، والتجانس النفسى هو السعادة الحقيقية ، فإذا قال لها «تاسو» إن حياته متعلقة بها وأنها محط آماله وأمانيه ، وموضع إلهامه وأصل عبقريته ، محضته النصح ، وحضته على الرزانة والهدوء، لأنها تخشى أن تكون قد باحت بمكنون ضميره ، وسوفته وعوداً غير بريئة .

ومن الشخصيات التى يقال أنه وصفها فى قصته ، كبير وزراء مقاطعة « ويمار »، الذى أظهره فى شخص « أنطونيو »، والذى زعموا أنه حاول فى بدء اتصال « جوته » بأمير المقاطعة أن يحول بينه وبين توليته وظائف هامة فيها ، كما زعموا أنه مثل صديقه «هردر» فى أنطونيو، لأنه كان بينه وبين صديقه حزازات أدبية

أما « الدوق الفونس » فهو أمير مقاطعة « ويمار »، وقد صوره ممثلا للحاكم الذى لا إرادة له غيرما يملى عليه ، فالدوق حين يعطف على الشاعر إنما يعطف على الوقف الذى سيخلد ذكره وذكر أسرته ، كما خلد أمير مقاطعة « ويمار » لأنه قرب إليه

« جوته » ، فصار ذكره مقروناً بذكر الشاعر الخالد . وكما يخلد كل الملوك الذين يقرنون اسمهم باسم الخالدين من الأدباء المعاصرين لهم .

وقد قال « جوته » في كتاب ذكرياته : إنه أودع في هذه القصة « أشياء كثيرة شخصية » لذلك حاول الكثيرون أن يتبينوا هذه الأشياء ، وهي تنحصر فيما ذكروه مضافاً إليه أنه جعل في شخصية « تاسو » شيئاً من نفسه لأنه ، وهو الشاعر النابه ، قدير على أن يفهم نفسية شاعر نابه مثله بقياسها إلى نفسيته .

والحق أن وصف « تاسو » لم يكن سهلا ، لأن أخلاقه وأفعاله مضطربة . كاضطراب العواطف الجائشة في صدره ، والخواطر الفياضة في نفسه ، فقد كان جسمه سريع التعب نتيجة دقة إحساسه ، وكان يستمد جمال أسلوبه وروعته من كبريائه وميله إلى العزلة والتأمل . ومن أدق أوصافه التي قلما تنبه لها نقاد أدبه حذره من الإنسانية وبغضه لها . وقد فطن جوته لهذا جميعه فمثله في قصته ، وكثيراً ما أجرى على لسانه آراء وأحاديث استمدها من أشعاره وتآليفه . وجعل حوادث القصة كلها منصبة على بيان أخلاق الشاعر ودرس نفسيته ، بحيث تظهر هذه الأخلاق شيئاً

فشيئاً ، وبحيث نتعرف من مطالعتها أن هذه القصة لم تكتب للمسرح في أول الأمر . ونحن نعلم أن جوته ابتدأ كتابتها نثراً في « ويمار » ، وعاد إليها في أوقات مختلفة ، فجعلها مسرحية ونظمها شعراً ، حتى أتمها في شهر يوليو سنة ١٧٨٩ .

٧

جوته وشيلر

انتهت الحرب بانخذال الدول المتألبة على فرنسا بعد واقعة « فالمى » التى سجل فيها رجال الثورة انتصاراً باهراً لهم ، فعاد جوته إلى ويمار فى صيف سنة ١٧٩٣ ليستقبل عهداً حفل بإنتاج أدبى جليل ، بفضل صداقته لشاعر الروائى شيلر .

كان « فريدريك شيلر » فى السابعة والعشرين من عمره حين جاء إلى ويمار ، ملبياً دعوة أميرها « شارل أوجست » الذى عينه مستشاراً فأستاذاً فى جامعة « إينا » ، وكان قد درس الطب والحقوق ، وألف رواية تمثيلية ، وشرع فى تأليف كتب فى التاريخ وعاش فى ويمار سنوات ، لم يتعرف فيها إلى جوته ولم يسع فيها أحدهما إلى صاحبه ، ولعل واحداً منهما لم يكن راضياً عن فن الآخر ، وكانا يختلفان فى ألوان الحياة التى يعيشان منها ، وفى نوع التفكير والأدب الذى أخذ به كل واحد منهما .

ابتدأ جوته حياته شاعراً ابتداعياً ثم درس علوم الطبيعة والنبات وطبقات الأرض ، فانقلب عالماً بحاثة ، ودرس «شيلر»

فى مستهل حياته الطب ، ثم عكف على نظم الشعر حتى صار أديباً شاعراً ، وكان « جوته » يأخذ بالواقع ويزدرى التفكير المطلق وما وراء الطبيعة ، ويستلهم أدبه من تجاريبه الذاتية . وكان «شيلر» يدرس الفلسفة ، ويعتمد فيما يكتبه على التفكير المجرد، والجدل وقرع الحجة بالحجة ، كان جوته ذاتياً يعتمد على نفسه واختباراته ، بينما كان شيلر موضوعياً يأخذ بالعقل والفكر .

هذا وقد عاش « جوته » عيشة رخاء ومرح : متنقلا من بلد إلى بلد، يشبع شهوات روحه وقلبه ، وينعم بحياة سهلة لينة ، أما « شيلر » فقد نشأ فقيراً وعاش فى تقتير دائم وحرب متواصلة مع الحياة والمجتمع، فلا غرو إذا كان «جوته» فى فريق المحافظين، و « شيلر » من الناقمين الثائرين .

ومن غرائب التضاد أن هذا الثائر على المجتمع وأوضاعه فى عقله وفكره ، كان شديد التمسك بالأخلاق والتقاليد فى حياته الخاصة . وكان من أشد الناس نقداً لعبث « جوته » فى حياته الخاصة ، وقد التقيا لأول مرة فى اجتماع عقدته جمعية التاريخ الطبيعى بمدينة « إينا » : فلاحظ أن آراءهما متفقة فى نقد بعض ما عرض فى ذلك الاجتماع ، فإذا انفض خرجا معاً فصحب جوته

صاحبه إلى منزله . فدعاه « شيلر لزيارته فزاره ، ولما افترقا كانا قد أصبحا صديقين، كأنهما شعرا أن كل واحد منهما يكمل الآخر، كما قرر ذلك « شيلر » في خطاب بعث به إلى جوته في ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٤ ، شرح فيه تفكيره القائم على الجدل ، وقابله بتفكير صاحبه المتميز بالوجدان ، مؤكداً أن هاتين العقليتين جديرتان بأن تتفقا بدلا من أن تتخاصما وتتنافرا ، لأن كل واحدة منهما متممة للأخرى .

وأصدر شيلر مجلة عنوانها « الساعات » ، فاشترك جوته في تحريرها . ولكنها لم تلق رواجاً .

واشتدت الحملة على « جوته » بمدينة ويمار بسبب حياته الخاصة ، وامتنع الأمير من حمايته . فانقطع عن القصر إلا فيما تقتضيه وظيفته، ثم انتقل إلى « إينا » ليوثق عرى صلاته « بشيلر » ، فقضيا عشر سنوات في إنتاج زاهر خدما به الفن خدمات جليلة .

كان جوته يدير مسرح ويمار ، وكان يؤلف المسرحيات لتمثل فيه . ويحث صديقه على الكتابة ، وقد يهم بمسرحية ثم يترك موضوعها لصديقه ، حتى صار ذلك المسرح مدرسة للفن جليلة القدر عظيمة الفائدة ، بفضل تعاون الأديبين الكبيرين .

وبينما كانت حمى العمل تلهبهما وصلت إلى مدينة ويمار الأديبة الفرنسية مدام دى ستال فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٠٣، وكانت تطوف ألمانيا إستعداداً لتأليف كتابها « فى ألمانيا » . وهو الكتاب الذى عدّ عند ظهوره ركناً من أركان الأدب الابتداعى فى فرنسا ، فاحتفى بها القوم وأقاموا لها المآدب ، وزارت « جوته » ووصفت على طريقتها الأثر الذى تركته فى نفسها زيارتها له . والحقيقة أنها هى التى استلمت قياد الحديث طيلة تلك المقابلة . حتى إنها لم تترك له مجالا ليقول كلمة واحدة ، وقد قال « جوته » فى وصفها : إن عيبها الوحيد هو نشاط لسانها ، لأنه إذا أراد الإنسان الإصغاء إلى حديثها وجب عليه أن يتحول إلى آلة سامعة من قمة رأسه إلى إخمص قدمه ، أما هى فقد قالت عنه : إنها لا تحبه إلا إذا حتسى كثيراً من الشمبانيا .

ويشاء الله أن يموت شيلر مصدوراً فى ٥ مايو سنة ١٨٠٥ ، فتنفصم عرى تلك الصداقة الأدبية المتينة، التى أفاد منها الديبان الكبيران فائدة عظيمة ، وقد كتب « جوته » فيما بعد « لقد فقدت بموته شطراً من نفسى » .

وكانت تلك الأعوام خصبة فى تأليف « جوته » الأدبى، فقد

كتب قصصاً كثيرة ، نكتفى بالإشارة إلى ثلاث منها :

١ — « ولهلم ميستر » قصة طويلة تقع فى جزأين ، تناول فى أولهما حياة بطل القصة فى عهد طفولته وتنشئته، فذكر الكتب التى طالعها ووصف مطامح نفسه وفورة شبابه وحوادث الحب التى عصفت بقلبه الفتى . ويقال أن جوته وصف شبابه فى شخص ذلك البطل ، ثم انتقل فى الجزء الثانى من القصة إلى المجتمع الراقى ، ومثل فيه جماعة من حاشية بلاط « ويمار » .

٢ — « أجاتون » وهى قصة تهذيبية، وصف فيها فتى فى طور انتقاله من الحياة الفكرية الخيالية إلى الحياة العملية ، وقد تناول بعض أشخاصها بطريقة واقعية، فمثلهم على حقيقتهم كأنهم أحياء يرزقون . وفى القصة وصف طريف لحياة الشقاء والبؤس، يكسب بطل القصة عطف القارىء وشفقته ، إنه يقول على لسان بعضهم: « لا يعرفك أيتها القوى السماوية من لم يأكل خبزه ممزوجا بالدموع ، ومن لم يقض ليله باكياً فى مضجعه »، وقوله : « لا يفهم الأمى غير من يشعر بالرغبة الملحة » .

٣ — « هرمان ودورتيه » وهى قصيدة طويلة ، نظم فيها قصة فتى يسكن الضفة اليمنى من نهر الرين ، شاء أن يساعد اللاجئين

من سكان الصفة اليسرى ، الذين هربوا من بلادهم عند اجتياح الفرنسيين لها فرأى «دورتيه» وأحبها وأراد أن يتزوجها فعارض أهله فى هذا الزواج، ثم رضوا به بفضل وساطة بعض الأصدقاء ، بيد أن « هرمان » حين لقى «دورتيه» تحدث إليها عن رغبته فى حياء ، جعلها تفهم أنه يريدها خادمة له . فرفضت فى إباء ، ثم قبلت الزواج منه ، بعد أن سألته عما يريده منها فى جلاء ووضوح .

وإذا كان موضوع هذه القصة بسيطاً فإن جوته جلاه فى شعر رائع . وصف فيه الحب الذى يدخل القلب عن طريق العقل ، مما جعل قصته ثمرة شهية من ثمار التفكير الناضج والفن الكامل .

٨

جوته ونابوليون

كانت أوربا تضطرب فى ذلك العهد بحروب عظيمة ، كانت مظهراً من مظاهر العبقرية من ناحية، ووصمة خزى فى جبين الإنسانية من ناحية أخرى، تلك هى حروب نابليون . وكانت بروسيا لا تزال ناقمة على فرنسا لانحدارها فى واقعة « فالمى » ، فانضمت إلى أعدائها وأعلنت الحرب عليها . واشترك « شارل أوجست » فى الحرب الثانية كما اشترك فى الأولى ، وخان النصر الجنود البروسية فى هذه كما خانها فى تلك ، وفى صباح يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٦ سمع سكان ويمار هزيم المدافع يقصف فى « إينا» .

كان « جوته » عظيم الإيمان بحظ نابوليون ، شديد المخاوف على تاج أميره أن يهوى عن رأسه ، ولكن انكسار الجيوش البروسية واقتراب الحرب من المقاطعة والخوف ، كل هذا لم يحل دون تمثيل قصة من نوع الأوبريت على مسرح ويمار يوم ١٣ أكتوبر ، وكانت هذه القصة من تأليف « جوته » .

عندما اقتربت الحرب من مدينة ويمار رحل من سكانها

من رحل وأقام من أقام . وكان بين الراحلين الأميرة الوالدة « الدوقة أميلى » ، وبين المقيمين زوجة الأمير « الدوقة لويزه » و « جوته » .

وفى مساء يوم ١٤ أكتوبر كان صوت المدافع يقترب شيئاً فشيئاً من « ويمار » ثم أخذت القنابل تتساقط حول المدينة وقد مرت واحدة منها فوق قصر جوته . وما كادت الشمس تميل إلى المغيب حتى كان الجيش الفرنسى على أبواب المدينة يطارد فلول الجيش البروسى . فأرسل جوته ابنه وكاتب سره ليقدما للجيش الفرنسى التحية ، ويدعوا ضباطه إلى قصره الذى كان يغص باللاجئين إليه من سكان المدينة .

وفى اليوم التالى استقبل «جوته» فى قصره المرشال « ني » وغيره من كبار القواد الذين كانوا يقدرونه قدره ، فوكلوا إلى بعض الجند حراسة القصر . وكان يتردد على منزله الكثيرون من الضباط ، وحل فيه بعضهم .

وكانت « كرستيان » عشيقة جوته تختلط بهم فتقدم لهم طعامهم وتشهد مجالس شرابهم . فخاف جوته أن يعتدى أحدهم عليها جهلاً منه بصلتها برب الدار فعقد قرانه بها فى يوم ١٩

أكتوبر فى حفلة خاصة لم يشهدها غير ابنهما وكاتب السر .

وفى غضون هذا كان نابوليون قد وصل إلى قصر الدوق بويمار فاستقبلته الأميرة لويزة فى عزة نفس وقوة جنان وحسن سياسة أكسبتها إعجاب نابوليون واحترامه .

ومرت سنة الحرب ، وتلتها سنتان مليئتان بالغم والحزن . فقد قضت الدوقة أميلى نحبها فى سنة ١٨٠٧ وكانت تعطف على جوته وتعجب بمواهبه ، وماتت والدته فى سنة ١٨١٦ ، ولكن أعماله لم تتح له فرصة للسفر إلى فرنكفورت لتقبل العزاء والاهتمام بميراثه منها ، فأناب عنه زوجه « كريستيان » ، ويقال إنها قامت بالمهمتين خير قيام ، وأن الخمسين ألف مارك التى ورثها عن والدته تاحت له بسطة من العيش لم يكن ينالها من دخله السابق .

وكان نابليون لا يزال يتنقل من نصر إلى نصر حتى استقر رأى المحاربين على عقد مؤتمر عام بمدينة « إيرفوت » بالمانيا ، يتفوض فيه إمبراطور فرنسا وقيصر روسيا وملك بروسيا ، ويشهده وزراؤهم وقواد جيوشهم ورجال حاشيتهم . وكان الدوق « شارل أوجست » بين المؤتمرين . فرغب إلى جوته أن ينضم إليه ففعل بعد تردد قليل ، ووصل إلى تلك المدينة فى ٢٩ سبتمبر

سنة ١٨٠٨ ، وشهد تمثيل فرقة الكوميدى فرانسيز وكان على رأسها الممثل الشهير « تلما » ، وكان نابوليون قد استصحب الفرقة بين حاشيته . ثم تعرف إلى بعض عظماء الرجال فأخبر أحدهم نابليون بوجود « جوته » بين رجال المؤتمر فحدد لمقابلته يوم ٢ أكتوبر عند الساعة العاشرة صباحا .

كانت هذه المقابلة حادثاً هاماً فى حياة جوته لم يفتأ يردد حديثها طول حياته . فقد وصل إلى القصر الذى حل فيه نابوليون قبيل الموعد بقليل مرتديا ثيابه الرسمية . فلقى جماعة من الوزراء والقواد ينتظرون الاذن لهم بالدخول على الامبراطور ، فانضم إليهم . وعند الساعة العاشرة فتح باب القاعة التى كان نابوليون فيها فدخلوها جميعاً . وكان يتناول طعام الفطور . فأخذ يتحدث إلى كل واحد منهم فى مهام الدولة وشؤونها المالية . ولما رأى نابوليون جوته أشار إليه بان يتقدم وسأله عن سنه فاجابه : ستون سنة : فقال له نابليون انه يحمل عبء هذه السنين بنشاط. ثم أردف : أعرف إنك أعظم شاعر تراجيدى فى المانيا . فاجابه جوته : انك تسىء إلى بلادى ياذا الجلالة لأننا نعتقد أن عندنا شعراء كبراً لابد أن جلالتكم سمعت بهم أمثال « شيلر » و « ليسنج »

و « ويلند » . فأجاب نابوليون : اعترف انى لا أعرف عنهم شيئاً .. ثم نصح نابوليون لجوته أن يشهد فى كل مساء تمثيل فرقة الـكوميدى فرانسيز .

وأشار بعض الحاضرين إلى أن جوته ترجم من قبل إلى الألمانية مسرحية « محمد » لفولتير ، فقال الامبراطور إنها ليست ذات قيمة .

ولما انتقل الحديث إلى قصة « ورتر » قال نابوليون إنه طالعها سبع مرات فى غضون حملته على مصر ، وانتقد فصلا منها انتقاداً اعترف جوته فيما بعد بصحته .

ثم أخذ نابوليون يتحدث إلى بعض رجال حاشيته فى مهام الدولة ، فتنحى جوته إلى أحد جوانب القاعة ، وما لبث نابوليون أن لحق به وسأله عن حياته الخاصة وعن أمير ويمار ، وكان حديثه ينم عن تقدير وعطف . وقد قال فى نهايته لأحد رجاله مشيراً إلى جوته « هذا رجل » .

وفى يوم ٦ ا أكتوبر انتقل نابوليون إلى « ويمار » ومثلت فرقة الـكوميدى فرانسيز على المسرح الذى كان يتولى « جوته » إدارته رواية « موت قيصر » ، ثم أقيمت بعد التمثيل حفلة راقصة

فى القصر دعا نابوليون فى غضونها جوته لمقابلته وكان مما قاله له:
يجب أن تكون التراجيديا مدرسة للملوك والشعوب وأهم الشعر فينبغى أن تكون أعظم آثاره. يجب أن تذهب إلى باريس وأن تكتب من جديد قصة « موت قيصر » وأن تبين كيف إنه كان يستطيع تحقيق سعادة العالم لو أنهم تركوه يعيش.. لا شىء يساوى تراجيديا حسنة الوضع والتأليف. إنها تتفوق على التاريخ من بعض النواحى.

وحلت ذكرى انتصار « يينا » فى يوم ١٤ أكتوبر فأنعم نابوليون فى هذه المناسبة على جوته بوسام جوقة الشرف.

تنتهى عند هذا الحد علاقة جوته بنابوليون. وقد امتلأت نفس جوته اعجاباً بالعاهل الكبير الذى كان يمثل القدرة فى أقصى مجاليها، يتلاعب بالأقدار، ويتصرف بالعروش والممالك طوع ارادته ووفق أهوائه، وقد صوره جوته فيما بعد بحيث جعله فى أعلى قمة يصل إليها نشاط الرجولة. أما نابوليون فانه رأى فيه جندياً عظيما يضويه تحت لوائه فلا يثور به ولا يوجه لأعماله النقد الشديد كما فعل كبار الأدباء الفرنسيين.

وقد احتفظ جوته باعجابه بنابوليون حتى فى أيام محنته. ولما

شاءت الأقدار أن يأفل نجمه ، وتألبت عليه دول أوربا ، وعادت المانيا إلى الحرب ، أبى جوته على ابنه الانخراط فى الجيش والانضمام إلى المحاربين

ولما انتصرت الدول المتحالفة على فرنسا ودخلت جيوشها باريس فى سنة ١٨١٤ رغب ملك بروسيا إلى جوته بأن ينظم قصيدة فى ذلك الحادث الجلل . ففعل مرغماً ونظم بعنوان «نهضة ايبمنيدس » قصيدة أشار فيها من بعيد إلى انتصار الدول المتحالفة .

وكان « جوته » إذا هاجم أحد محدثيه نابوليون يقول له : « دعوا امبراطورى وشأنه » .

أما نابوليون فانه لم يذكر جوته فى سانت هيلين بكلمة واحدة .

٩

الميول الاختيارية

إن الأحداث التى شهدها جوته وحزنه على شيلر ووالدة الأمير ووالدته ، كل هذا لم يشغله عن نفسه ، ولم يحل بينه و بين الأدب ، و بين قلبه و بين النساء .

فقد أتم « جوته » فى ذلك الطور من حياته الجزء الأول من قصة فاوست التى سنعود للحديث عنها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب ؛ ونظم قصيدته الرائعة « بندور » ، وشرع فى كتابة قصة « الميول الإختيارية »، وكان قد أحس فى قرارة نفسه بأنه قد بلغ القمة العليا من أدبه وعمره ، بعد أن خاض غمار الحياة موزعا بين العمل والتفكير ، و بين الشك والتهكم ، فتغلب على شياطينه ، وانتصر على عاديات الزمان ، فأخذ يفكر بكتابة ذكرياته ، وشرع بجمع المواد التى تساعده على تدوينها وقد أتمها جوته بعد ذلك ونشرها بعنوان «شعر وحقيقة » وهو اسم خليق بتلك الذكريات التى كتبها فى أسلوب قصصى أنيق طلى ، فتحدث عن تطوره الفكرى، ووصف حالة الأدب الألمانى عندما

بأشره فى طور الشباب وصفاً دقيقاً شاملاً ، وأبدع فى رواية حوادثه الغرامية مثل حبه لشارلوت بوف وفريد ريكه بريون .

أما النسوة اللواتى تداخلن فى حياته فنذكر منهن «بتينا برنتانو» وكانت ابنة مكسيميليان التى روينا من قبل حب جوته لها . والتى تزوجت ببيير برنتانو ، وكان لحوادث حبها أثر فى قصة ورتر .

كانت بتينا فى نحو التاسعة عشرة من عمرها ، صغيرة الجسم حتى تخال أنها فى الثانية عشرة . طالعت شعر جوته وقصصه وأحبته ، واتصلت بوالدته فاستطاعت بوساطتها أن تتبادل معه رسائل جمعتها فيما بعد بعنوان « رسائل جوته إلى فتاة » ، وكتبت لها مقدمة طويلة روت فيها ما حدثتها أم جوته عن ابنها . ونشرت رسائلها إليها ، وقد وصفت بتينا فى إحدى هذه الرسائل كيف قابلت الشاعر لأول مرة ، وكان ذلك فى أواخر شهر إبريل سنة ١٨٠٧ فى غرفته ، وبينما كان جوته يتحدث إليها حديثاً عادياً لم تطق صبراً فى مجلسها ذاك فقامت من مكانها وجلست على ركبته . وإذ ضمها جوته إلى صدره ، استنامت طويلاً إليه لأنها كانت لا تزال منهوكة القوى بعد سفرها الطويل الشاق .

وقد عجب النقادة الفرنسى « سانت بوف » لهذا التصرف الشاذ . ثم أردف بأن الناس فى ألمانيا يختلفون تماماً عن الشعوب اللاتينية ، ونقول إنهم يخالفون كذلك تقاليدنا الشرقية .

وتعددت المقابلات بين الشاعر الشيخ و بين الفتاة الشابة . ثم قفلت راجعة إلى فرانكفورت ، وعادت المراسلات بينهما ، ولكن جوته صار لا يعنى بتلك الرسائل لأنه كثيراً ما كلف كاتبه بالرد عليها .

وتزوجت « بتينا » بعد ذلك وعادت إلى ويمار فلم تلبث أن خاصمت « كرستيان » زوج جوته ، وكانت تحتقرها وتجد أنها غير جديرة بشرف ذلك الزواج . فانتصر «جوته» لزوجه وقطع علاقته ببتينا .

وكانت الفتاة الثانية « مينا هرزليب » التى تبناها « فرومان » صاحب مكتبة بمدينة « اينا » وكان بحانة أديباً نشر فيها نشر من الكتب قصائد (سونه) لفلوطارخس . وكانت « مينا » فى ميعة الصبا بارعة الجمال رائعة الفتنة فأحس «السيد الشيخ العزيز» ، كما كانت تدعوه ، بلواعج الغرام تثور فى قلبه وتضرم نار الشباب المتأخر فى نفسه ، فخاف مغبة حبه لفتاة عرفها طفلة وعنى بتربيتها ،

وهو اليوم يراها شابة كاملة الأنوثة كزهرة يانعة القطف . فضم عواطفه إلى نفسه ، وطوى حبه فى قلبه ، وغادر « اينا » إلى ويمار . ولكنه فعل ذلك بعد أن نظم سبع عشرة قصيدة «سونه» وقصيدة « بندور » ويقال إن كل هذا الشعر كان من وحيها ، كما يقال إنه استعار لبطلة قصة « الميول الاختيارية » أشياء كثيرة مما لاحظه فى « مينا هرزلت »

ظهرت هذه القصة فى سنة ١٨٠٩ فكان لها دوى كبير ورأى النقاد شبها عظيما بينها و بين «ورتر » ، لولا ان ورتر قصة شباب وحماس ، وان الميول الاختيارية قصة شيخوخة وتفكير .

وتقوم هذه القصة على أربعة أشخاص هما الزوجان « ادوار » و «شارلوت» وضيفاهما « اوديل » ابنة أخى شارلوت وضابط فى الجيش من أصدقاء «ادوار» . وقد وصف جوته وصفاً بارعا كيف تولدت الميول فى نفوس هؤلاء الأربعة ونمت شيئاً فشيئاً حتى تسلطت على قلوبهم ولم يلحظوها إلا بعد أن أصبحت قوية عنيفة . أحب « ادوار » « اوديل »وأحب الضابط «شارلوت» وقد تحكمت هذه الأخيرة بعواطفها وتغلبت على حبها . أما ادوار فلم يستطع إلى ذلك سبيلا فشاء الطلاق من زوجه فابته عليه

فسافر هاجراً منزله وظلت أوديل مع شارلوت . وتتطور حوادث القصة تارة فى بطء خارج عن موضوعها يسىء إلى لحمتها ووحدتها ، وتارة فى عنف ، حتى تنتهى بموت « اوديل » « وادوار » .

١٠

الشيخوخة

كان جوته يعانى وجع الكلى منذ زمن طويل ، وكان فى صيف كل عام يقصد إلى بعض المدن ذات المياه المعدنية للاستشفاء ، ولعله كان يقصد كذلك هرباً من ثرثرة زوجته المرهقة وأخلاقها الوضيعة ، وطلباً للقيا صديقاته النبيلات الجميلات ، حيث يصير واسطة عقد إجتماعاتهن ومطمح أنظارهن.

وفى غضون إحدى هذه الرحلات التى قام بها فى سنة ١٨١٢ ، التقى جوته بمدينة « تبلتز » بالموسيقى الاشهرى « بتهوفن » ، فأنس كل واحد منهما برفيقه ، وكانا قد بلغا أسمى قمم العبقرية والشهرة .

وقد روت « بتينا برنتانو » قصة إذا لم تكن قد جرت حوادثها حقيقة فإنها ذات دلالة كبيرة على نفسية كل واحد منهما : نفسية الرجل الذى عاش فى القصور وتقلب فى المناصب الرفيعة ، ونفسية الرجل الذى كان كل همه أن يصبح فناناً عبقرياً وأن نحترم فيه هذه الميزة .

روت «بتينا» أنه بينما كان جوته وبتهوفن يتنزهان في حديقة المدينة التقيا بالأسرة المالكة على عرش النمسا ، فتوقف جوته عن السير ، وانتحى جانباً من الطريق ، منتظراً في احترام مرور الأمراء . أما «بتهوفن» فإنه أنزل قبعته على عينيه بحركة عصبية ، وضم معطفه على صدره ، وسار في طريقه ويداه متشبوكتان وراء ظهره . ففسح له الأمراء الطريق ، وبادره الأرشيدوق «رودلف» بالتحية ، وابتسمت له الأمبراطورة ، ثم أخذت الأسرة في طريقها . والتفت بتهوفن إلى الوراء فرأى جوته يحيي وقد حنى ظهره وأمسك قبعته بيده حتى كادت تلامس الأرض .

وهناك قصة أخرى نرى من الواجب ذكرها وإن كانت مشكوكا في صدقها . فقد قيل إنه بينما كان جوته وبتهوفن يتنزهان في حدائق كارلسباد ، كان المتنزهون يحيونهما عن اليمين وعن اليسار حتى ضاق جوته بهم ذرعا ، فقال لصديقه : «يضايقني أنني لا أستطيع الخلاص من مظاهر هذا الإعجاب» فأجابه بتهوفن : «لا تنزعج كثيراً يا صاحب السعادة . فلعل هذه المظاهر موجهة إلى شخصي» على أنه بعد وفاة جوته عثروا بين

أوراقه على رسالتين فقط بعث بهما إليه بتهوفن وفيهما الدليل الواف على إعجاب الموسيقى بالشاعر إعجاباً مليئا بالتبجيل والإحترام

وفى ذلك العهد أقبل جوته على مطالعة شعر حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى المعروف ، وكان « هامير » قد نقل شعره إلى الألمانية فوجد فيه كثيراً من الصور الجديدة والوصف الجميل والالهام البعيد ، مما أثار فى نفسه إعجاباً كبيراً ، وبعث فيه الرغبة إلى تحديه ، فنظم على طريقته قصائد أطلق على مجموعتها اسم « الديوان » وقد أثارت تلك المطالعة فضول جوته إلى معرفة الأدب الشرقى فأقبل على مطالعة كتب أخرى ذكر مؤرخوه بينها كتاب أسفار إلى فارس الهند بقلم « شردن » ومجموعة الاشعار العربية التى نقلها إلى الفرنسية المستشرق « سيلفستر دى ساسى »

أما قصائد « الديوان » فقد جعلها جوته فى شكل حوار بين « يوسف » و « سليكه » وإذا كان « جوته » « يوسف » فمن كانت « سليكه » ؟

يقال إن جوته وجدها بمدينة إينا فى شخص « ماريان يونج » زوج صديقه السرى « فيلما » وكانت بالرغم ، من قصر قامتها وبدانة جسمها ، جميلة فتانة فى نضارة وجهها واستدارته ، وفى

الدعابة الممثلة فى عينيهـا الضاحكتين ، وفى حديثها العذب وفنهـا الموسيقى . ولما شعر جوته بان حبه لها أخذ يملك عليه جوانب قلبه خاف مغبته وخشى أن يقوده إلى أبعد مما يريده منه فانقطع عنها فجأة وسافر إلى « ويمار »

وتمتـاز قصائد « الديوان » بحسن سبكها وإحكام عباراتها وجمال صورها . على أن علماء النقد أخذوا عليه إكثاره من استعمال التعابير الشرقية واستعانته بسعة اطلاعه على قوة بادرته فجاء الشعر فى بعض الأحيان فاتراً ينم عن ثقافة واسعـة وفن فياض ، أكثر مما يدل على شاعرية قوية . لذلك قالوا إن الديوان دليل على بدء انحطاط مواهب جوته الشعرية .

وكان مؤتمر « فينا » الذى عقد فى سنة ١٨١٥ بعد سقوط نابليون ونفيه إلى جزيرة « سانت إيلين » قد أعلى من شأن مقاطعة ويمار فازدادت أعمال جوته الإدارية ، وندط به أمير المقاطعة الذى صار يحمل لقب « جران دوق » أى الدوق الكبير إدارة المعارف والفنون الجميلة ، فضلا عن رئاسة الوزراء ، وإدارة المسرح

وكانت الأيام تتبدل ، والافكار العامة تتطور متجهة نحو تأييد سلطان ، الشعب والحد من سلطة الحاكم . وكانت أفكار

جديدة تطلع فى سماء الأدب ، ومواهب طريفة تحاول أن تجد لها مكانا فيها. ولكن جوته الشيخ لم يستطع أن يتطور مع الأيام وأن يفهم جمال الأهلة الجديدة . ولعله كان يخشى أن تصير بدورا كاملة تزاحمه شهرته وسلطانه .

ظل « جوته » محافظاً فى سياسته ، مستبداً فى آرائه ، ارستقراطيا فى نزعات نفسه ، يحتقر الشعب ويخشاه . وقد عارض فى سن دستور جديد لمقاطعة ويمار ، وتأليف مجلس نيابى ، وإطلاق حرية الصحافة . وشاء له استبداده مرة أن يرسل فرقة من الجند لتفريق مظاهرة قام بها طلبة جامعة « إينا » .

وكذلك فرض « جوته » سلطانه على مسرح ويمار ، فكان لايرضى بأن تمثل فيه غـير القصص التى توافق ذوقه وتوائم مذهبه الأدبى .

ولم تكن مشاغله فى داخل منزله بأقل خطرا منها فى الخارج . فهذه زوجته تموت فى ٦ يونيو سـنة ١٨١٦ فينظم ساعة وفاتها أربعة أبيات من الشعر ثم ينصرف إلى أعماله الإدارية ليسلو فيها حزنه . وهذا ابنه «أوجست» الذى لم يكن سر أبيه ، فهو شاب فاسد الأخلاق عصبى المزاج ، لم يصبر على تحصيل العلم ولم

ينل قسطاً وافراً من التربية ، بل نشأ نزقاً سكيراً ، وقد فكر والده أن الزواج يحد من نزق نفسه ويكبح جماح أهوائه ، فاختار له فتاة رقيقة الشعور حسنة التهذيب ذكية الفؤاد اسمها « أوديل دى باجويش » ، وعقد الزواج فى ١٧ يونيو سنة ١٨١٧ ولكن الزوجة لم تلبث أن شعرت بتعاسة حياتها لأن زوجها ظل مسترسلا فى غوايته إلى حد شائن فاضح .

على أن هذه المشاكل العائلية ، وتلك المتاعب الإدارية ، لم تكن تقعد جوته عن السفر فى صيف كل عام إلى المدن المائية للاستشفاء والاستجمام ، كما أن الشيخوخة لم تحل دون تذوقه الجمال وهيامه بالجميلات .

وكان أن قصد « جوته » فى صيف سنة ١٨٢١ إلى مدينة « ماريباد » ، وأقام فى منزل تديره أسرة تتألف من خمس نسوة بينهن الفتاة « ايلوليك دى ليفتزو » ، وكانت رقيقة الحاشية ذات حياء وخفر ، فألهبت شعوره بعينيها الزرقاوين ونظراتهما البريئة الساذجة .

كان جوته يلازمها فى المنزل فإذا خرج إلى المنزه دعا الأسرة لمرافقته ، وكان روح الشباب الذى لم يفارقه أخذ يستيقظ عنيفاً

قوياً ، فنسى شيخوخته ، وتجاهل ما بين سنه المتقدمة وسن الفتاة الشابة من تفاوت وفرق ، ونسى كذلك مقامه الكبير فى الدولة والأدب ، واستسلم لحب صامت عنيف . وكانت نزوات ذلك الحب تهدأ فى الشتاء وتتقد جذوتها من جديد فى الصيف عند مايعود إلى مارينباد ، وطال به الصمت حتى أرهقه . لماذا لا يتزوج من هذه الفتاة التى يحبها ؟ ولماذا يقيم وزنا للفرق بينهما فى السن مادامت العواطف تقارب بينهما ؟ وما دخل هذه الفروق إذا كان الجسم لايزال قوياً والقلب فتياً ؟

ورضى (الجراندوق) أن يتقدم بنفسه خاطباً الفتاة لكبير وزرائه . وقد وعدها بأن يهبها منزلا فخماً لتقيم فيه أسرتها ، وأن يجرى عليها معاشاً بعد وفاة جوته فكان رد الفتاة أنها تحب الشاعر الكبير حباً أبويا خالصاً ، وأنها تقف حياتها لخدمته لو أنه كان وحيداً لا أسرة له ، أما الارتباط بالزواج به فإنها تأباه .

وهكذا عاد جوته أدراجه إلى ويمار كسير القلب حزينه ، طاوياً فى نفسه آلامه ، مودعاً الحياة التى كان يظن أنها لا تزال تبتسم له كما تبتسم للشباب ، عاد إلى شعره وأدبه فنظم قصيدة فى غرامه المتأخر ، وشرع فى تأليف الجزء الثانى من قصة «فاوست»

أما ابنه فقد نقم عليه تفكيره فى الزواج خوفاً من أن يفوته ميراثه منه . فخاصمه خصاماً أصيب بعده « جوته » بنوبة قلبية كادت تودى بحياته .

وكان هذا الابن لا يزال آخذاً بحياة المرح واللهو ، يأوى إلى منزله فى كل ليلة قبيل الفجر وهو يترنح سكراً . ففكر والده فى سنة ١٨٣٠ أن يبعث به إلى إيطاليا ، لعله يجد فى مشاهدة روائعها شفاء لأدواء نفسه ، كما وجده هو من قبل . ولكن هذا السفر لم يأت بالنتيجة المنشودة ، بل ظل الابن عاكفاً على ذلك اللون الشاذ من حياة الاستهتار والمجون حتى قضى نحبه فجأة يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٣٠ ، ونعى إلى والده فى ١٠ نوفمبر فى كتاب أرسله إليه « كستنر » وزير هانوفر المفوض . وهكذا شاءت الأقدار أن يكون ابن « شارلوت بوف » التى خلد جوته حبه لها فى « آلام ورثر » هو الذى يبعث إليه بالنبأ الفاجع .

وقد وجد الشاعر الشيخ عزاء عن مصابه الأليم فى حفيديه ، وفى متابعة أبحاثه العلمية التى كان يراسل بشأنها بعض علماء فرنسا من أمثال « كوفيه » وغيره ، وفى إتمام الأسفار الأدبية التى ابتدأها مثل « شعر وحقيقة » و« فاوست » وقد انتهى من هذه

القصة الأخيرة فى شهر أغسطس سنة ١٨٣١ فكانت ختاماً رائعاً لحياته الطويلة .

كان جوته قد أصيب بنزيف دموى غب وفاة ابنه فتغلب عليه حتى شفى منه . ولكنه أضعف رئتيه . وفى يوم ١٦ مارس سنة ١٨٣٢ شعر ببرد عقبه حمى ، فلزم فراشه مكافحاً الداء الذى ما لبث أن اشتدت وطأته عليه ، وفى صباح يوم ٢٢ مارس استيقظ من نومه وسأل عن اليوم فلما أخبر به قال أنه بشرى الربيع . ثم عاوده النوم ، وكانت نوافذ الغرفة مغلقة ، وعند ما أفاق من جديد طلب شيئاً من النور . وكان هذا الطلب آخر ما نطق به . وقضى نحبه قبل ظهر ذلك اليوم بقليل فانطفأ بوفاته سراج أنار الإنسانية أكثر من نصف قرن تقريباً . ولكن نور ذلك السراج لم يخب فهو لا يزال متألقاً سامى القدر عظيم الخطر .

١١

فاوست

شغلت قصة « فاوست » تفكير « جوته » طول حياته . فقد تراوحت فكرتها فى نفسه منذ سنة ١٧٧٢ ووضع قطعة من الجزء الأول فى مستهل عهده بمدينة «ويمار» سنة ١٧٧٥ ، وقد وجدت صورتها الأولى بين مخلفات مدام دى ستين . ثم كتب قطعة أخرى وأعاد النظر فى الأولى ونشرهما سنة ١٧٩٠ ، وكتب فى سنة ١٨٠٠ قطعة من الجزء الثانى مثل فيها حب « فوست » هيلين ، وفى سنة ١٨٠٨ ظهر الجزء الأول من القصة . ثم شرع بكتابة الجزء الثانى فى سنة ١٨٢٤ فتممه سنة ١٨٣١ ، أى قبل وفاته بعام واحد.

وقد استمد « جوته » موضوع قصته من شخصية اختلف الباحثون فى حقيقتها ، فقد روى بعضهم أن هناك رجلا كان يسمى « جان فاوست » ، ولد فى أواخر القرن الخامس عشر بمدينة « كنتانجن » بمقاطعة « ورتمبرج » ودرس علوم الطبيعة والكيمياء فى « كراكوفيا » ، وأنفق فى الفسق والفجور ثروة طائلة ورثها عن أعمامه ، فلما افتقر شاء أن يعوض ثروته بتجاريب

كيميائية ترمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب، وكانت هذه الفكرة شائعة فى القرون الوسطى . وهنا تتداخل الخرافة بالتاريخ حتى ليصعب التفريق بينهما وتمحيص الحقيقة .

يروى أنه كان لهذا العالم خادم يدعى « وجبر » أطلعه سيده على أسرار العلوم التى حفظها ، وأخصها السحر ، فحذقها الخادم حتى قيل إن التلميذ تفوق على أستاذه ، وصارا يسافران معاً ويطوفان البلاد الألمانية ، فيعرضان أعمالاً شيطانية كانت مثار إعجاب ودهشة كل من يراها . كان فاوست يظهر خادمه تارة كأنه خيال ملم ،وتارة كأنه إبليس نفسه ، وكان يسميه وهو فى هذه الصورة « مفيستوفيلس »

وقد طال طواف فاوست فى البلاد مدة أربع وعشرين سنة ، وشوهد فى بعض المدن يستحضر الأرواح ، وقد ذكروا روح منهم الإسكندر المقدونى ، وهيلين زوج منيلاس التى جرت لأجلها حروب طروادة الشهيرة ، ويقال إن فاوست أحبها ، وأنه لم يكتف بروحها تمثل أمامه بل رغب إلى شيطانه أن يبعثها حية ، وأنه تزوج بها .

وفى ليلة من ليالى سنة ١٥٤٠ وجد « فاوست » قتيلا ،

وقيل إن خادمه « وجنر » كان إبليس نفسه ، وأنهما كانا قد اتفقا على أن يبيع « فاوست » نفسه له على أن يطلعه إبليس على أسرار السحر ويحقق رغباته إلى أمد معين ، وأنه عند نهاية العقد قتله خنقاً ، ثم مزق جسمه إرباً إرباً وحمل روحه إلى الجحيم. أما الحقيقة فهي أن المال الذى جمعه « فاوست » بشعوذته أغوى خادمه فاغتاله على تلك الطريقة الشنيعة .

ويقول الكاتب « جيرار دى نرفال » ، وهو أول من نقل قصة فوست إلى اللغة الفرنسية ، أن « جان فوست » كان من مدينة « مايانس » ، وأنه فى سنة ١٤٥٠ ساعد جوتنبرج ، مخترع الطباعة ، بماله على الوصول إلى اختراعه ثم استغله استغلالا شنيعاً حتى اضطره إلى أن يتنازل له عن اختراعه . وأنه بعد ذلك حمل هذا الاختراع إلى فرنسا حيث عرضه فى قصر الملك لويس الحادى عشر ، وتوفى فى باريس بالطاعون . ثم يقول الأديب الفرنسى أن رهبان الأديرة نقموا على « فوست » تشجيعه لاختراع الطباعة ومساهمته فيه فلفقوا عليه تلك الخرافات التى ذكرناها للنيل منه .

وقد تناول قصة « فاوست » غير واحد من الأدباء قبل « جوته »

ولكن أحداً منهم لم يبلغ الشأو الذى بلغه جوته بحيث نسخت قصته كل ما تقدمها .

وقصة فاوست تمثيلية تقع فى جزأين أولهما فى ثلاثة فصول مهد لها بمقدمتين والثانى فى خمسة فصول .

قوام لمقدمة الأولى حديث يجرى بين مدير المسرح الذى يود إرضاء النظارة ، و بين الشاعر ، مؤلف الرواية ، الذى يبغى أن يخلد بقصته ، و بين شخص ثالث فكه يسخر من الخلود و يود لو يصل إلى تصوير الحقيقة فى شكلها الواقعى .

أما المقدمة الثانية فتجرى حوادثها فى السماء حيث يظهر الله تحف به الملائكة ، فيتقدم إبليس باسم « مفستوفياس » و يعرض على البارى تعالى أمر « فاوست » ويقول له : « هل تراهن بأنك ستفقد « فاوست » إذا أذنت لى أن استغويه شيئاً فشيئاً حتى يصير طوع هواى » فيقبل الله الرهان مجيباً : « حسناً . حول هذه النفس عن نبعها الأول وسر بها إن استطعت فى طريقك ، ولكنه سينتابك خجل حين يضطرك الاختبار إلى الاعتراف بأن فاوست هو الرجل الصالح الذى يتعرف الطريق القويم ، بالرغم من النزعات القاتمة التى تتدافع فى نفسه »

ثم يأخذ «جوته» بحوادث قصته . فيصور فى الفصل الأول منها « فاوست » كنموذج كامل رجاحة العقل والعبقرية الفذة ، فهو عالم أحاط بكل العلوم ، ووقف على جميع المذاهب الفكرية ، بحيث لم يبق على الأرض شىء لم يعرفه ولم يره . ولكنه بعد أن بحث كل العلوم ، وتبطن أسرار الفكر والديانات ومعتقدات والمذاهب ، يطمح فى خياله إلى معرفة أسرار غير منظورة ، ويمنى نفسه بأن يكشف عن الطبيعة سترها الذى يغشى حقيقتها ويحجب خفاياها . وهو لهذا يرى حياته وما زرعه ، يود لو ينتحر ليخلص من شهوة المعرفة التى تعذب نفسه بعد أن بلغ آخر الأفق من العلوم والمعارف ، فيبحث لأجل ذلك عن سم كان قد أعده لمثل هذا اليوم . ولكن فاوست يسمع قرع أجراس عيد الفصح ، وتصل إلى أذنيه أصوات المرتلين يقيمون مراسيمه فى الكنيسة المجاورة لداره ، فيشعر بحنين إلى الماضى الذى يعيده فى نفسه ذكريات العيد . غير أن نزوات فكره تعاوده ، لأنه مضطرب فى إيمانه ، كما هو قلق فى شكوكه . ويشعر بأن نزق الهوى أخذ يعاود نفسه بعد أن ظن أن جذوته قد انطفأت فيها ، فيطمح إلى الاسترسال فى نشوته حتى الثمالة . وتسول له نفسه أن يستحضر

بين يديه إبليساً بفعل سحره العجيب الذى حذقه . ولكنه لا يلبث أن يطرد هذه الفكرة من ذهنه ، ويخرج مع خادمه « وجنر » ليشارك القوم فى احتفالهم بالعيد . ولكن نفسه تظل حزينة ، ولا يزال يشعر بازدواج روحه ، فجزء منهما يصبو إلى الشمس سمواً ، والجزء الآخر يرسف بأصفاد هذه الأرض التى لا يستطيع الانفكاك منها .

وقد اختار إبليس تلك الساعة لينصب له الشباك التى يريد إيقاعه فيها . يظهر أولا فى شكل كلب يتبع فاوست إلى غرفته فيلهيه عن مطالعة التوراة التى أقبل عليها للتعزية والشكوى . ثم يتحول إلى شكل آخر فيبرز فى صورة «مفستوفياس» ، و يمنيه بأن ينيله ما يريد من نعيم الدنيا إذا رضى أن يبيعه نفسه ، فيقبل فاوست هذه الصفقة، ويرافقه مفيستو إلى عجوز تسقيه أكسير الشباب .

يتحول فاوست فى الفصل الثانى إلى شاب أنيق يرتدى أحدث الأزياء وأبهجها ، ويذهب مع رفيقه مفيستو إلى حانة فيجريان النبيذ من رجل منضدة بمجرد ضربها برجليهما ، فيدهش الطلبة المجتمعون لهذا العمل العجيب . ثم ينصح مفيستو لصاحبه بأن

يعشق «مارجريت» ، ولعلها من أجمل الشخصيات التى خلقها خيال شاعر، لأنه جعلها مثالا حيًّا لوداعة القلب وخفر النفس ورقة العاطفة . يلتقى بها فاوست لأول مرة فى أحد الشوارع فيقول لها أنها آنسة جميلة ويسألها أن تأذن له بأن يرافقها . فتدافعه بأنها ليست جميلة ، وأنها ليست بحاجة إلى من تتكىء على ذراعه حتى تصل إلى منزلها ، فيعجب بها ، ويقسم أنه لم ير مثلها طيلة حياته . لأن هيأتها تدل على أدب ، حسنة الأخلاق متواضعة النفس، أنه لن ينسى ما عاش حمرة شفتيها وجذوة خديها . لقد أنطبعت فى أعماق قلبه طريقة خفضها لعينيها ، وصورة ثوبها القصير ، شرفة أنها لخلابة .

ظلت مرجريت تفكر بكلمات الأطراء التى سمعتها من فاوست ، وكانت وجنتاها تحمران خجلاً كلما جرى ذكرها فى خاطرها ، انها خجلة لكنه خجل يخالطه كثير من الفخر لأنها أعجبت شاباً أنيقاً شريفاً .

ثم يحاول فاوست ومفيستو إغواء الفتاة ، فيتسللان خفية إلى مخدعها ، ويضعان فيه سفطاً محشواً بالجواهر ، ثم يضرب فاوست

لها موعداً . وتتم الغواية ، فتقع مرجريت فى شراك الحب التى نصبت لها .

تمر حوادث القصة بعد ذلك سريعة فقد أتعب هذا الحب فاوست قلبه . وعلم « فالنتين » ، شقيق الفتاة ، بعار أخته فشاء أن يثأر لها ، فأصيب بضربة قاتلة بفضل تدخل مفيستو ، ولا سبيل إلى غلبة من كان إبليس نصيره ، فيموت الشاب لاعناً أخته .

وتظهر مرجريت بعد ذلك فى الكنيسة بين جوقة المرتلين ، وقد اختفى مفيستو وراء أحد أعمدة الكنيسة القريبة منها ، وراح يذكرها بسنى طهرها وينعى لها فضيلتها . انها تشعر بثمرة الحب فى أحشائها ، وقد أصبحت أثيمة لا مستقبل يرجى لها فى الحياة.

وفى الفصل الثالث تشهد فاوست يشتد به الحنين إلى مرجريت فيعود إليها فيجدها سجينة لأنها بعد أن هجرها حبيبها قتلت الطفل فحكم عليها بالإعدام . فيعرض عليها فاوست الهرب من سجنها فتأبى لأن العذراء والدة الآله أسعفتها فى محنتها وسكبت فى قلبها النعمة والسلوان فهى تنتظر حياة النعيم وتأبى المعونة من أهل الجحيم .

وعندئذ يسمع صوت ينادى من عل « لقد أنقذت » فيخاف مفيستو أن يفر فاوست من حبائله فيهرب به .

***

مثل « جوته » فى هذا الجزء الأول من قصته « فاوست » شخصيات تعد فذة فى نوعها فريدة فى مدلولها . وتكاد تكون القصة وحيدة نسجها فى أدب العالم أجمع .

وأول هذه الشخصيات « مفيستوفاس » ، فهو مزيج بين الجد والهزل ، إنسان مهذب صقلته المدنية ، أنيق الهندام ، ظريف الحديث ، يتكلم عن الله فى خفة روح ، ويسخر من النساء ، ويحلل شذوذ أخلاق الناس فى تهكم لاذع ، بل هو يسخر بكل مافى الناس من نزعة سامية . يرى الحياة أضحوكة ، والفضيلة كلمة جوفاء . إنه إبليس الذى لا ينعم بغير الشر يمحقه بالناس ، ولا تطيب نفسه إلا إذا رآهم يتمرغون فى حمأة العار والفجور . ولكن الغواية التى يردى إبليس الناس فيها تنتهى بهم إلى عكس ما يرجو .

إنه يدفع مارجريت إلى اليأس فيقودها إلى التوبة ، ويدفع بفاوست إلى حد [illegible] من العمل واللذة فيفضل العمل على اللذة ،

وهكذا تجد مفيستو يعمل في سبيل الخير والصلاح في حين أنه يبغي الشر الفساد . أو كما قال جوته على لسان الله تعالى : « أن وجود الشيطان ضروري للانسان لأنه يدفع به إلى العمل ، ولولاه لضعف نشاط الناس وهمد »

أما شخصية فاوست فقد مثلها جوته على نقيض مفيستو أنه. رجل فكر يبحث عن الحقيقة ويرغب الوصول إليها ، فهو يريد أن يفهم أسرار المعاني التي تعبر عنها الألفاظ ، وأن يأخذ باللباب دون القشور . ويطمح إلى معرفة كنه الأشياء وأصولها وأسبابها وقوتها الدافعة . وفي سبيل هذه المعرفة يدرس السحر ويأخذ به لأنه أفضل من بقية العلوم. وقد دل الاتفاق الذي أبرمه مع إبليس على هذا جميعه ، كما دل على روح سامية شريفة لا يفهمها مفيستو . فهو لم يقصد من ذلك الإتفاق أن يتمتع باللذة فحسب ، بل أراد أن يطوف بكل ما في العالم من منح سواء فيها ما كانت صالحة أو شريرة ، وقد اختار أشد أنواع اللذة، وهي التي يتبعها الألم وفي شخصية فاوست تتغلب الروح أبداً على المادة ، كما تتغلب على أهواء النفس شهوات اللذة والمعرفة والعمل ، فهو طاهر عفيف حين يهيم حباً بمرجريت وحين يقسم أنه يحفظ عهد

حبه أبدا ، وهو مخلص فيما شعر به من ندم على ما فرط منه بعد أن أثم فى حبه .

تمثل إذن شخصية فاوست الإنسانية فى عظمتها وانحطاطها . إنها تمثل الرجل الأعلى الكامن فى نفس كل واحد منا ، ذلك الرجل الذى يطلب من الحياة أقصى ما تستطيع أن تمنحه الإنسان، أو كما جاء على لسانه : « الرجل الذى يشعر بفقر الحياة وضيقها ويسمو إلى عالم اللانهاية » . وتمثل كذلك الرجل الذى تتقاذفه شتى الأهواء ، فهو متعطش إليها جميعاً ، يتبع الشهوة حين ينتهى إلى اللذة فإذا بلغها أسف على الشهوة . إن فاوست هو الرجل ذو النفسيتين : إحداهما عالقة بالأرض ، وأخراهما نازعة إلى السماوات العلى .

ولعل شخصية مرجريت التى يقال أن جوته كتبها دفعة واحدة فى سنة ١٧٧٥ أوضح هذه الشخصيات الثلاث ، وأظهرها ، وأقلها تعقيداً . فهى تمثل الفتاة الساذجة البعيدة عن الأناقة والتظرف ، فى رقة عاطفة ، وطهارة نفس ، كانت تجهل قبل أن يتحدث إليها فاوست أنها جميلة ، وظلت بعد ذلك لا تفهم حبه ، ولا تجد فى نفسها الأسباب التى أثارت إعجابه وحبه .

أنها ترد على كلمات الإطراء التى يوجهها إليها بأن يديها خشنتان لكثرة ما تشتغل فى منزلها . وتسأله فى سذاجة إذا كان يؤمن بالله .

وتظل مرجريت محتفظة بطهرها فى نظر القارئ حتى بعد الآثام التى ارتكبتها أو كانت سبباً لها ، وهى فقدها طهرها ، وموت أمها مسمومة ، ومصرع أخيها ، وقتلها ابنها . فقد استطاع جوته أن يصور ندمها وحزنها فى مشاهد سريعة جميلة رائعة ، بلغت أقصى حدود التأثير والإبداع . فمرجريت تبلل بدموعها الأزهار التى تضعها على إيقونة العذراء ، وتقبل امنات أخيها حانية الرأس مستسلمة ، ويستولى عليها حزن عميق حين تسمع ترانيل المصلين ، وأخيراً تأبى أن تلحق بحبيبها وأن تهرب من السجن ، وترضى بأن تموت كفارة عن خطاياها .

وقد بلغ جوته فى هذه المسرحية الشعرية أقصى حد من براعة الأسلوب وقوته ، حتى ليقال أن المطالع لا يجد فيها على طولها لفظاً نافراً ، أو بيت شعر ضعيف التركيب . وهى لهذا تعد رائعة من روائع الأدب الألمانى .

على أنه يؤخذ عليها ما يؤخذ على الكثير من مؤلفات جوته ،

وهو تفكك بعض الأجزاء ، وضعف تلاحمها ، وقد اعترف جوته بذلك . أما سبب هذا الضعف فيرجع إلى أنه كتب فصولها المتناثرة فى أوقات مختلفة بحيث امتد الزمان به بين أولها وختامها .

وقد جرى جوته فى شخصيات قصته على عادته من تمثيل بعض أصدقائه أو نفسه فيها . فمثل « ميرك » فى شخص مفيستو وكان جوته يلقب صديقه بهذا الاسم ، وقد لازمه ردحاً طويلاً من حياته كما لازم مفيستو فاوست ، وتجد فى كلام مفيستو كثيراً من التهكم اللاذع الذى كان جوته يتبرم به فى معاشرته الطويلة لميرك ، والذى كثيراً ما كان يبرد من حماسة نفسه ونزعاتها .

أما « فاوست » فإن جوته مثل فيه نفسه ، فقد وصفه بعض من عرفه فى سنة ١٧٧٥ ، أى حين أخذت فكرة القصة تختمر فى نفسه ، أنه كان جباراً ثائراً على الله ولا شك أن المشاعر التى أجراها على لسان فاوست أحس بها فى داخل نفسه . وكان جوته مثله يشتغل بالكيمياء . ويعجب بمناظر الطبيعة وقوتها السامية ويحاول إدراك معانى اللانهاية .

وقد أحب جوته كما أحب فاوست ، وكانت حبيبته « شارلوت شونمان » التى ذكرناها من قبل ، وكانت شقراء ذات قوام

بتضلعه من علم الكيمياء الذى يفرق بين « الأمهات » التى تمنى بأصول الأشياء ، و بين المعادن والأجسام . فإذا حضرت هيلين ، أصيب فاوست باضطراب شديد ، وأحبها حباً عنيفاً ، فيندفع نحوها و يلمسها بمفتاحه السحرى ، فيحدث انفجار هائل ، وتختفى هيلين ويقع فاوست مغمى عليه ، فيحمله مفيستو إلى غرفته .

وفى الفصل الثانى يتقدم إلى فاوست رجل نحيل ضئيل يدعى « هومنيكولوس » وكان قد فطن إلى رغبته برؤية هيلين ، و إن لا شفاء لأمراض نفسه غير الاتصال بها . فينصح له بالانتقال إلى بلاد اليونان ، فيطير بهما مفيستو على بساط الريح إلى حقول «فرسال»، حيث تجتمع مرة فى كل عام، جميع الشخصيات الخرافية اليونانية ، ولكن « هومنيكولوس»، وهو رمز عن الروح ، لايزال فى الزجاجة التى ولد فيها ، فيشهد مرور المواكب ، حتى إذا مر موكب « جالاتيه » ، قذف بنفسه على عربته ، فتتحطم الزجاجة وتتبخر الروح وتتلاشى . أما فاوست فيبحث عن هيلين و يسأل عنها كل من يراه .

إنها فى أسبرطة ، كذلك نجدها فى الفصل الثالث من غير انتقال أو تمهيد يفسر وجودها ، ومعها زوجها منيلاس غاضب

ناقم عليها . فيبرز لها مفيستو فى شكل «فوركياد» ، و ينصح لها أن تلجأ إلى جماعة من أهل الشمال المعتصمين فى قمة جبل هنك ، فتفعل ، وتتصل هيلين بفاوست فينتقل بها إلى أركاديا وتلد له ولداً يسميه «أوفوريون» ، وهو صبي عجيب جرىء ، يريد أن يطير إلى السماء فيهوى ، و يموت ،فتلحق به هيلين وتنزل وراءه إلى الجحيم تاركة ثيابها لفاوست .

ويقال أن هذا الفصل من أجمل فصول القصة روعة فى أسلوبه . وقد مثل فيه جوته الشعر الاتباعى فى شخص هيلين كما مثل نفسه فى شخص فاوست . واتصال فاوست بهيلين هو الجمع بين الفن لقديم والفكر الحديث . أما ابنهما « أوفريون » فانه الشعر الجديد ، وقيل أنه مثل فيه اللورد بيرون .

أثرت هذه الفواجع فى نفس فاوست فنراه فى الفصل الرابع يطالب السعادة فى العمل، و يرغب الى مفيستو أن يحقق مطلبه . أما الفرصة فسانحة لأن الامبراطور الذى عمل بنصيحة مفيستو وأصدر ورق النقد لإنقاذ دولته من الإفلاس ، وجد نفسه أمام متاعب جمة تسبب عن ذلك النقد الذى زاد فى خراب البلاد ، فقد عمت الفوضى كل دوائر الحكومة ، واجتمع رجال الدين

وانتخبوا عاهلا جديداً استمال الجيش وسار به لمحاربة الامبراطور وخلعه . فيتقدم فاوست إليه ، ويحارب فى صفه ، ويساعده بفعل سحره على أعدائه ، فينتصر الملك ويرضى عنه .

وقد مثل جوته فى هذا الفصل الحروب الطويلة التى نشبت فى القرون الوسطى بين البابوية والامبراطورية الألمانية .

وفى الفصل الخامس يجمل جوته ما فصله فى قصته الطويلة . لقد انتهى أمد العقد بين فاوست وبين مفيستو ، وحانت وفاة فاوست ، وتتقدم اليه أربع نسوة فى ثياب رمادية ، تمثل الفكر والضمير والهم والتعاسة . ولكن ثلاثاً منهن لا يستطعن الدخول عليه . وتدخل التى تمثل الهم من ثغرة فتنفخ فى عينه فيصاب بالعمى . على أن هذه العاهة لا تفل من عزيمته على العمل ، لأن النور ينحصر فى نفسه فيزيد فى نفاذ بصيرته .

لقد عرف فاوست متع الحياة ولذاتها فاذا حلت الشيخوخة وجد أن كل شيء فى الحياة باطل . وأن الأحزان الممثلة فى مجموعة أولئك النسوة الأربع هى الطريق إلى حياة سامية وقد شاءت الأقدار أن يصاب بالعمى لكى يسير إلى مصيره دون أن تفسد عليه لسبيلَ رؤية العالم الخارجى ومناظرُه .

ويأتى مفيستو بعد أن أعد لفاوست معدات الموت ، وحفر قبره فى القصر ، وتأهب لاقتناص روحه ، ولكن السماء تنشق . وتظهر جوقة من الملائكة تذرع الفضاء طولا وعرضاً . فيتراجع مفيستو مذعوراً فتغتنم الملائكة هذه الفرصة وتختطف روح فاوست وتحملها الى السماء بين تهليل المرتلين .

ونسمع بين أناشيد أولئك المرتلين صوت الخاطئة التائبة « مرجريت » تضرع إلى العذراء شافعة بفاوست، تسألها أن ترافقه إلى السماء العليا، لأن الملائكة يودون احلاله فى الطبقات السفلى .

وهكذا ينتهى الجزء الثانى من قصة فاوست الذى ملأه « جوته » بالرموز والاشارات، وقد ألممنا ببعضها ، وفيها مشاهد لا سبيل إلى استقصاء ما ترمز عنه ، وهذا الجزء مفكك فى بعض الأحيان لا رابطة تربط بين المشهد والآخر الذى يتلوه .

ويلاحظ أن فيه الكثير من ضعف الشيخوخة وثرثرتها . فقدشاخ فوست ومفيستو وطعنا فى السن ، وهكذا كان « جوته » أيضاً ، فتغيرت النزعات النفسية ، وصار حديث الشيخوخة على جميع الألسنة .

على أن قصة فاوست ستظل من أجمل الكتب التى دبجها يراع عبقرى ، لما حوته من أفكار نبيلة ، وشعر قوى عنيف، وفلسفة فى الحيـاة والدين جليلة . وهى عنوان عصر خصيب بالأفـكار الحرة والأبحاث العميقة .

مطبوعات حديثة

قرش		
٢٠	أنطونى وكليو باترة «لشكسبير» تعريب	محمد عوض ابراهيم بك
٣٠	مشكلات الأطفال اليومية	الاستاذ اسحق رمزى
٢٠	نظرات فى الحياة والمجتمع	للاستاذ على أدهم
٢٥	الكيمياء ومسائل الحياة اليومية	الاستاذ حسن عبد السلام
٢٠	الأزمات الروحية وعلاجها	للدكتور محمد زكى شافعى بك
٣٠	التربية الانجليزية (الطبعة الثانية)	الاستاذ محمد عطية الابراشى
٢٥	الأمير حيدر	الاستاذ ابراهيم جلال بك

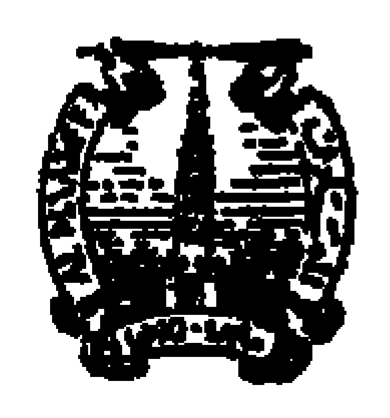
٩٨٩٨٣٢

٩ ٣

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف

بمصر



رمز

الطباعة الأنيقة

وشعار

المؤلفات النفيسة

ورسالة

الفن والعلم والأدب

إلى قراء العربية

فى جميع الأقطار

دار المعارف للطباعة والنشر

المحل الرئيسى بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة

فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد على

مكتب السودان : شارع السردار بالخرطوم

مكتب فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد